

عباس محمود العقاد



دار نهضة مصر للطبع والنشر
القاهرة - القاهرة

مذبة شجرة



عباس محمود العقاد



هذه الشجرة

هذه الشجرة

« ... ويا آدمُ اسكنْ أنت وزوجُك الجنةَ فكلا منْ حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوسَ لها الشيطان ليُبدىَ لها ما وُورىَ عنها من سوءاتها وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكينِ أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إني لكأمان الناصحين . فدلّاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتها وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين »

« سورة الأعراف »

* * *

« ... وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلها الشيطان عنها فأخرجها مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين »

« سورة البقرة »

« رأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون شهية للنظر . فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل ، فانفتحت أعينها وعلما أنها عريانا ونادى الرب آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاخبتُ . فقال : من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة

التي أوصيتك ألا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي
أعطتني من الشجرة فأكلت . فقال الرب للمرأة : ماذا الذي فعلت ؟
فقالت المرأة : الحية غرتني فأكلت . فقال الرب للحية : لأنك فعلت
هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وخوش البرية ، على
بطئك تسعين وتراها تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين
المرأة وبين نسلك ونسلها : هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه » .
العهد القديم « الأصحاح الثالث . سفر التكوين »

* * *

هي القصة الخالدة في الأديان الكتابية .
وهي الرمز الخالد إلى طبيعة المرأة التي تتغير : هي تفعل ما تنهى عنه
وهي تغري الرجل ، وفي كل من هذين الحلقين دليل مجمل على خلاق
أخرى مفصلة تنطوي في ذلك الرمز الكبير .

* * *

قال الشاعر الجاهلي طفيل الغنوي :
إن النساء كأشجار نبتن لنا منها المرار ، وبعض المر مأكول
إن النساء متى يُنهين عن خلق فإنه واجب لا بد مفعول
وقد ألهم هذا الشاعر البدوي - ابن الفطرة وابن البادية - خلاصة
قصة الشجرة في بيتيه المطبوعين ، وخلاصتها أن المرأة تغري بأكل المر
الذي لا يساغ أولاً يسوغ ، وأنها تفعل ما تنهى عنه ، فهو عندها
« واجب لا بد مفعول » .

وكل خلق كامن في المرأة يظهر من هذا الولع بالمنوع .
فلم كانت كذلك ؟ لأنها ضعيفة ؟ لا . إن قبل ذلك خطوة نخطوها
ثم نصل منها إلى هذه الخطوة التالية .

قبل ذلك إنها محكومة ، ثم هي محكومة لأنها ضعيفة ، وما زال من
دأب المحكوم أن يحن إلى التمرد والعصيان ، وأن يلتذ المخالفة للمسيطرين
عليه ، لأنه بهذه المخالفة يثبت وجوده أو يستوفى حياته ، فهي عنده
ضرب من حب الحياة .

« وأحب شيء إلى الإنسان ما منعا » كما قيل .

نعم إلى الإنسان كافة لا إلى المرأة خاصة ، ولكن المرأة قد خصت
بهذه الشهوة لأنها محكومة لا تحكم غيرها إلا من طريق الإغراء ، أو تنبيه
النفوس إلى ما هو « شهى بهجة للعيون » كما جاء في العهد القديم .

* * *

كل خلق من أخلاق المرأة مرموز إليه في قصة « هذه الشجرة » . . .
ومن هنا اخترنا الإشارة إليها عنواناً لهذا الكتاب .

فالولع بالمنوعات خلاصة طبائع المرأة التي تنمى إلى أسباب كثيرة
ولا تنحصر في سبب واحد .

ولكن السبب الأكبر منها أنها تؤمر وتتمنى كثيراً ، وأنها تؤمر وتتمنى
لأنها أضعف من أمرها وناهيها ، ولا تزال معه أبداً بين لذة الخضوع ولذة
العصيان ، ولعلها لا تعصى إلا لتعود مرة أخرى إلى خضوع أعمق
وأشهى من خضوع البداية والارتجال .

ولا تولع المرأة بالمنوع لأنها محكومة وكفى ، أو لأنها محكومة لضعفها واعتمادها على من يمنعها .

بل هى تولع بالمنوع لأنها تتدلل ، ولأنها تسيء الظن ، ولأنها تعاند ، ولأنها تجهل وتستطلع ، ولأنها موهونة الإرادة لا تطيق الصبر على محنة الغواية والامتناع .

وكل أولئك عنوان لخصلة أخرى من ورائها : هى خصلة الضعف الأصيل .

هى تتدلل لأن قيمتها موقوفة على غيرها ، أو معلقة بنظرة غيرها إليها . . . فهى تحب أن تعرف قيمتها ، ولا تعرف قيمتها إلا بمقدار ماتكلف الرجل من الصبر عليها واحتمال الدالة المحبة منها .

والدلال نوع من الإباء ، أو نوع من المخالفة والعصيان ، وإغراء بتكرار الطلب وتكرار الممانعة . . . ويتمنعن وهن الراغبات !

ولو لم تكن قيمتها معلقة بمشيئة غيرها لما كانت بها حاجة إلى الدلال ، ولا إلى توابع الدلال من المكابرة والولع بالمنوع .

* * *

وهى تسيء الظن كما تسيء الظن كل رعية محكومة . فالرعية التى طال عليها عهد التسلط والحكم تحسب كل أمر من الحاكم شيئاً يفيد ولا يعينها ، وتحسب كل نهى من الحاكم مصلحة تهمه ولا تهمها ، واجتناباً لمحذور يسوءه ولا يسوءها .

فينبعث منها سوء الظن بداهة وفطرة كلما دعت إلى فريضة أو نهيت عن محذور .

وتلج بها رغبة المخالفة بغير بحث ولا روية ، بل تخالف ولها منفعة في الطاعة . لأن المخالفة هوى والمنفعة تفكير ، وما زال الهوى في النفوس أقوى عليها من التفكير .

فالمرأة تحسب أبدأ أن سيدها ينهاها لأنه يريد أن يستأثر بها ويخشى من المزاحمة عليها . فتلك رغبته إذن لا رغبته ، ومتعته إذن لا متعتها ، وهي إذن تنصف نفسها كلما تمردت عليه . وتحقق غرضاً لها كلما فوّت عليه غرضاً من أغراضه ، أو هكذا توحى إليها بداهة المخالفة بغير روية ولا بحث مفيد في حقائق الأسباب .

* * *

ثم هي تعاند عناد الضعيف .
وعناد الضعيف شيء آخر غير تمرد المحكوم ، وإن كان كلاهما قريباً من قريب في العنصر الأصيل .
فالضعيف يتشبث بالحياة لأنه مهتد في الحياة ، ومن تشبهه بالحياة تشبهه بالهوى ، وتشبهه بالعادة التي يدرج عليها ، ويخيل إليه أن الفناء في التحول عنها .

وفي الطفولة تشبث كثير .
وفي الشيخوخة تشبث كثير .
وفي الأنوثة تشبث كثير .
والخاسر على مائدة اللعب يتشبث بالبقاء عليها ولا يطيب له أن يفارقها ، وكل أولئك باب من أبواب العناد المطبوع غير عناد المحكوم ، أو غير الولع في الخاضع الذليل بالعصيان والإباء .

فهذا العناد وليد الخوف ، وذاك العناد وليد الغضب ، وليس
الخائف كالغاضب في بواعث الشعور .

* * *

ثم هي تولع بالمنوع لأنها تجهل وتستطلع وتشبه الطفل الناشئ في
غريزة الجهل والاستطلاع .

والجهل والاستطلاع مولعان بالهدم قبل الولع بالبناء .

فهما لا يدعنان إلا بعد معرفة يطول تحصيلها ، وقبل الوصول إلى
تلك المعرفة يأتیان الإذعان ويسرّيحان إلى الممانعة والتعويق والتحطيم .

* * *

أما ضعف الإرادة فهو عذاب بين يدي الغواية لا يخلص منه
الضعيف إلا بمقارفة الشيء المنوع ، فينتهي بذلك عذاب الفتنة
والإغراء والمصايرة والامتناع .

فإذا وضع بين يدي الضعيف قدح من الماء القراح وقيل له لا تشرب
منه شرب منه وهو غير ظمآن .

لأنه يريد أن يمتنع فتنازعه الرغبة ، ويريد أن يكبح الرغبة فيعذبه
الكبح ، ويريد أن يحتمل العذاب فيعييه الاحتمال . فهو ضعيف مع
الرغبة ، ضعيف مع الكبح ، ضعيف مع العذاب ، ضعيف مع هذا
التردد كله لا يريحه منه إلا أن يفعل ما نهى عنه ، ويفض المشكلة بهذه
النهاية .

فهو يشرب الماء القراح لأنه يفض مشكلة الامتناع عنه ، لا لأنه
ظمآن إلى الماء القراح .

والشيطان حين قال لآدم وحواء « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة
إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » قد ألهب في حواء كل علة
من علل المخالفة والولع باليمنوع ؛ وسول لها الغواية والإغراء .
فأكلت وزينت لآدم أن يأكل مثلها .

فتمت بذلك صفات الضعف كلها ، لأن الإغراء علامة المشيئة التي
تصل إلى بغيتها من طريق التحسين وإثارة الشهوة في غيرها ، لا من طريق
الأمر والإخضاع أو من طريق الغلبة بالشهوة الطاغية على شهوة أخرى .
وكأنما لسان الحال الذي تنطق به المرأة في هذا المقام : إنك أيها
الرجل تخضعني وأنا أغريك ! أنت تخضعني بسلطانك ، وأنا أخضعك
بما أتيج لك من « شهوة النظر وبهجة العيون » .

* * *

فهذه الشجرة . . .
هذه الشجرة التي أكلت منها المرأة لأنها نهيت عنها ، والتي طعمت
منها ثم أطعمت آدم معها . . .
هذه الشجرة هي عنوان ما في المرأة من خضوع يؤدي إلى لذة
العصيان ، ومن دلال يؤدي إلى لذة المانعة ، ومن سوء ظن ، وعناد
ضعف ، واستطلاع جهل ، ومن عجز عن المغالبة ، وعجز عن الغلبة
بغير وسيلة التشبهية والتعرض والإغراء .
وهذه هي قصة « الأنثى الخالدة » كلها في كلمتين .

غواية المرأة

والولع بالإغراء والإغواء أخو الولع بالمخالفة والعصيان .
كلاهما دليل على رجوع الأمر إلى الآخرين .
فالمخالفة دليل على أن المخالف محكوم لغيره ، والإغواء دليل على أنه
يرجع إلى غيره في العمل ويعتمد عليه .
فهما ثمرتان من « هذه الشجرة . . » أو هما خصلتان من خصل
الأنوثة الخالدة في الصميم .
تعرض المرأة وتنتظر ، والرجل يطلب ويسعى .
والتعرض هو الخطوة الأولى في طريق الإغراء ، فإن لم يكف فوراء
الإغواء بالتنبيه والحيلة والتوسل بالزينة والإيماء ، وكل أولئك معناه
تحريك إرادة الآخرين ، والانتظار .
فإرادة المرأة تتحقق بأمرين : النجاح في أن تراد ، والقدرة على
الانتظار .
ولهذا كانت إرادة المرأة سلبية في الشئون الجنسية على الأقل ، إن لم
نقل في جميع الشئون .
ولعل كلمة « لا » سابقة لكل نية تتمحن بها المرأة إرادتها وصبرها ،
فأخرج ما تكون إلى الإرادة والصبر حين تنوى ألا تتقدم ولا تسلم
ولا تجيب ولا تطيع .
وهنا تتصل هذه الخليقة فيها بخليقة العناد التي سبقت الإشارة إليها .
وقوام العناد كله أن يقاوم المعاند رغبة الآخرين وعمل الآخرين .

فالإرادة التى تتمثل فى العزيمة مذكورة ، والإرادة التى تتمثل فى
العناد مؤنثة ! أو هذا هو شأن الإرادتين فى غالب الأحوال .

* * *

وليس للمرأة أن تريد غير هذا النوع من الإرادة لأسباب عميقة فى
أصول التركيب والتكوين .

وموقف الجنسين من الاستجابة لمطالب النوع يهدينا إلى حكمة هذا
الفارق من طريق قريب .

فالذكور من جميع الحيوان قد أعطيت القدرة - بتركيبها
الجسدى - على إكراه الإناث لاستجابة مطالب النوع طائعات أو
مقسورات .

ولا يتأتى ذلك للإناث على حال من الحالات الجسدية ، فغاية
ما عندهن من وسيلة أن يهجن الرغبة فى الذكور ، وأن يجعلهم يريدون .
ولا يستطيعون الامتناع عن الإرادة .

فهذا الفارق ملحوظ فى أعماق التركيب الجسدى من كلا
الجنسين ، منذ نشأ الفارق بين ذكر وأنثى فى عالم الحيوان .

وحكمته ظاهرة كل الظهور ، لأنها هى الحكمة التى توافق بقاء النوع
وارتقاء الأفراد جيلا بعد جيل .

فالإغواء كاف للأنثى ولا حاجة بها إلى الإرادة القاسية .

بل من العبث تزويدها بالإرادة التى تغلب بها الذكور عنوة ، لأنها
متى حملت كانت هذه الإرادة مضیعة طوال مدة الحمل بغير جدوى .

على حين أن الذكور قادرون إذا أدوا مطلب النوع مرة أن يؤدوه مرات
بلا عائق من التركيب والتكوين ، وليس هذا في حالة الأنثى بميسور على
وجه من الوجوه .

واكراه الأنثى على تلبية إرادة الذكر لا يضير النوع ولا يؤدي النسل
الذى ينشأ من ذكر قادر على الإكراه وأنثى مزودة بفتنة الإغواء ، فهنا تم
للزوجين أحسن الصفات الصالحة لإنجاز النسل من قوة الأبوة وجمال
الأمومة ، ويتم للنوع مقصد الطبيعة من غلبة الأقوياء الأصحاء
القادرين على ضمان نسلهم في ميدان التنافس والبقاء . .

وعلى نقيض ذلك لو أعطيت الأنثى القدرة على الإرادة والإكراه
لكان من جراء ذلك أن يضمحل النوع ويضار النسل . لأنه قد ينشأ في

هذه الحالة من أضعف الذكور الذين يهزمون للإناث
وكيفما نظرنا إلى مصلحة النوع وجدنا من الخير له أبداً أن يتكفل
الذكور بالإرادة والقوة ، وأن تتكفل الإناث بالإغواء والتلبية ، بل
وجدنا أن فوارق البنية قد جعلت السرور في كل من الجنسين قائماً على
هذا الأساس العميق في الطبع . فلا سرور للرجل في إكراهه على مطلب
النوع ، بل هو منغص له مضاعف من لذة حسه . أما المرأة فقد يكون
استسلامها لغلبة الرجل عليها باعثاً من أكبر بواعث سرورها ، ولعله أن
يكون مطلوباً لذاته كأنه غرض مقصود . بل هو في الواقع غرض مقصود
لما فيه من الدلالة على توفيق الإنثى إلى إغواء أقوى الذكور . ومن
البدايات الفطرية أن تتظاهر المرأة بالألم والانكسار في استجابتها للنوع
لأنها تفتن ببدايتها الأنثوية الى هذا الفارق الأصيل في خصائص

الجنسين

وليس بنا أن ننظر في العدل الطبيعي بين خصائص الذكور
وخصائص الاناث . وانما نسجل هذه الحقائق بالملاحظة الصادقة
والدلالة الواضحة ولا يعنينا أن نصب لها ميزان العدل في توزيع الطابع
والملكات

ولكننا مع هذا القول نعود فنقول إن العدل هنا بين الجنسين غير
مفقود ، وأن القسمة هنا ليست بالقسمة الضيزى

فاذا قيل إن الحمل قد جنى على المرأة لانه خصها بالالم وجعل
الارادة من نصيب الرجل ، فلا ينبغي أن ننسى أن الحمل قد أتاح
للرأة مزية فطرية لا تتاح لزوجها على وجه اليقين . وهى ضمان نسلها
بغير دخل ولا ارتياب . فكل من ولدت المرأة فهو وليدها الذى يستحق
عطفها وحنانها ، وليس ذلك شأن الآباء فيمن ينسب اليهم من الابناء
وما من أم تسأل عن ألم الحمل الا تبين من شعورها أنها تستعذبه ولا
تترحم به ، وأنها قد تشعر بغبطة من الالم لا يعرفها الرجال الذين يثورون
على الآلام . ومن امتزاج الالم بطبيعة المرأة أصبحت التفرقة بين ألما
ولذتها فى رعاية الابناء من أصعب الامور

* * *

وعلى هذا يعتز الرجل بأن يريد المرأة ولا تعتر المرأة بأن تريده . . .
لان الاغواء هو محور المحاسن فى النساء ، والارادة الغالبة هى محور
المحاسن فى الرجال

ولهذا زودت الطبيعة المرأة بعدة الاغواء وعوضتها بها عن عدة الغلبة

والعزمة . بل جعلتها حين تُغلب هي الغالبة في تحقيق مشيئة الجنسين على
السواء

ولكن التفرقة في عدة الغواية واجبة بين ما هو من صفات الجنس
كله وما هو من صفات هذه المرأة أو تلك من أفراد النساء
فقد تكون المرأة من النساء أذكى وأبرع من هذا الرجل أو ذاك ،
فتأخذه بالحيلة والدهاء كما يغلب الاذكياء الجهلاء في كل مجال
يتصاولون فيه .

إلا أنها صفة فردية لا يقاس عليها عند بيان الصفات الجنسية التي
خصت بها « المرأة » على التعميم

وهذه الصفات الجنسية هي التي تعيننا في هذا المقام ، لأنها التراث
المشترك بين جميع بنات حواء في مواجهة الجنس الآخر . . . وهو جنس
الرجال .

فالذى يساعد المرأة من قبل الطبيعة على إغراء الرجل هو « الهوى
الجنسى » في تركيب الرجل نفسه . . . فلولا هذا الهوى لكأنت حيلتها
معه من أضعف الحيل وسلطانها عليه كأهون سلطان

ومما يرينا أن الطبيعة هي العاملة هنا وليست المرأة هي التي تعمل
بقدرتها واحتياها أن هواها في نفس الرجل شبيه بكل هوى ينمو فيه
بحكم العادة أو الفطرة . فهو يعانى من مقاومة التدخين أو معاقرة الخمر
عناء يجهده ويغلبه على مشيئته في كثير من الاحيان ، ولو كان للتبغ أو
للخمر لسان يتكلم لجاز أن يتحدث الناس عن لسانهما المعسول الذى
يغلب العقول ، وعن حيلتهما النافذة التي تسلب الرشاد

والاداة البالغة من أدوات الاغواء والاغراء هي قدرة المرأة على
الرياء والتظاهر بغير ما تخفيه

فهذه الخصلة قد تسمو فيها حتى تبلغ رتبة الصبر الجميل والقدرة على
ضبط الشعور ومغالبة الاهواء ، وقد تسفل حتى تعافها النفوس كما تعاف
أقبح الختل والنفاق

أعانتها عليها روافد شتى من صميم طبيعة الانوثة التي يوشك أن
يشترك فيها جميع الاحياء .

فمن أسباب هذه القدرة على الرياء أو هذه القدرة على ضبط الشعور
أن المرأة قد ربيعت زمناً على اخفاء حبها وبغضها لأنها تخفى الحب أنفة
من المفاخرة به والسبق إليه وهي التي خلقت لتتبع وهي راغبة ، وتخفى
البغض لأنها محتاجة إلى المداواة كاحتياج كل ضعيف إلى مداواة الأقوياء
ومن أسباب القدرة على الرياء أو القدرة على ضبط الشعور أن
الانوثة « سلبية » في موقف الانتظار ، فليس من شأن رغباتها أن تسرع
إلى الظهور والتعبير ، أو ليس من شأنها أن تفلح بالظهور والتعبير كما تفلح
رغبات الذكور

ومن أسباب القدرة على الرياء أو القدرة على ضبط الشعور أن
مغالبة الآلام قد عودتها مغالبة الخوارج النفسية مادامت في غنى عن
مطاوعتها والكشف عنها

ومنها أن اصطناع الزينة الذي استقر في خليقتها إنما هو في لبابه
اصطناع لكل ظاهر يحس بالأبصار والأسماع أو يحس بالضمائر والأفهام

وفى اللغة العربية توفيقات كثيرة فى الجمع بين الحقيقة المادية والحقيقة المجازية بكلمة واحدة ، ومنها كلمة « التجميل » التى تفيد معنى التزين لمراى العيون كما تفيد معنى التزين لمراى النفوس

ولرسوخ هذه الطبيعة الأنثوية فى تكوين المرأة - شغفت بالرياء لغرض تعنيه ولغير غرض تعنيه فى كثير من الأحوال كأنها وظيفة حيوية تستمتع بالمعالجة والرياضة كما تستمتع الأعضاء بالحركة والنشاط ، فالغش عند المرأة - كما قلنا فى رواية سارة - « كالعظمة عند فصائل الكلاب ، يعضها الكلب المدلل ويدخرها حيث يعود إليها وإن شبع جوفه من اللبن واللحم والأغذية المشتهة . لأن ألوفاً من السنين قد ربت أسنانه وفكّيه على قضم العظام وعرقها ، فهو يطلبها ليجهد أسنانه وفكّيه فى القضم والعرق ولو لم تكن به حاجة إلى أكلها . وألوف من السنين قد غيرت على المرأة وهى تخاف وتحتال وتراوغ وتراى وتلعب بمواطن الضعف فى الرجال حتى أصبح بعض النساء ممن قويت فيهن عناصر الوراثة وبرزت فى طباعهن عقابيل الرجعة ينشدن الغش التذاذاً به وشحذاً للسانان القديمة التى نبتت عليه ، ويسرهن أن يصنعن الشئ ويخفينه ولو لم تكن بهن حاجة إلى صنعه ولا اخفائه لأن المرأة من هؤلاء تشهى العظمة بمجوع عشرين ألف سنة ، وتشهى اللحم واللبن بمجوع ساعات »

* * *

وقد يعين المرأة على الرجل - غير الهوى وغير الخداع - خلق آخر هو فى الحقيقة خلق يعين الرجل على نفسه ، وليس عمل المرأة فيه إلا من قبيل الإذكاء والتنبيه

فالمراة « سكن » للرجل كما جاء فى القرآن الكريم

ولا يطيب للإنسان أن يحذر من سكنه أو يتجافى عن الهدوء والطمأنينة فيه ، ولاتم سعادته به إلا أن ينشئ عنه الحذر ويقبل عليه بجمع فؤاده وطوية ضميره ، فهو الذى يغمض عينيه بيديه ويستنم إلى الرقاد هرباً من السهاد . ونصف ما يقبله من الخداع إنما هو الخداع الذى نسجه بيمينه وزخرفته بتلفيقه ، وكذلك المرأة إذا تعلقت بالرجل كانت أسبق منه إلى التصديق وكان خداعه إياها أسهل من خداعها إياه ومن غوايات المرأة الكبرى أنها قصبة السبق فى حية التنافس بين الرجال

فالظفر بها يرضى كل شعور يحيك بقلب الرجل ، سواء منه ما يتناوله بأدراكه ووعيه وما ليس يدركه ولا يعيه

وقد اختلف أصحاب المذاهب الفلسفية فى تعليل نوازع الحياة التى تفسر بها أعمال الناس وترد إليها . فقال بعضهم أنها طلب القوة وقال غيرهم أنها طلب البقاء وزعم غير هؤلاء وهؤلاء أنها طلب اللذة ، وجاء آخرون فى العصر الحاضر فتغلغلوا بالنوازع الجنسية وراء كل غريزة ونفذوا بها إلى كل سرداب من سراديب النفس الخفية

وأيا كان موضع الصدق من هذه النوازع فالمراة معها جميعاً تطلق شعور القوة وشعور البقاء وشعور اللذة وتتقصى وشائج الجنس إلى جذورها الكامنة فى أعرق بواطن الحياة

وما الظن بقصبة السبق التى تستطيع أن تستدنى من تشاء وتثنأى عن

تشاء ؟

ان المتسابقين ليتناحرون على القصبة الحرساء وهى لا تحكم لهم بشىء
ولا تفاضل بين يمين ويمين - فالمرأة تلك القصبة التى تحاى وتجافى - حرية
ألا تبقى فى عزيمة عادٍ بقيةً من نوازع السباق

* * *

تلك هى بعض عناصر الغواية الانثوية التى تملكها المرأة من حيث تدرى
ولا تدرى

وكذلك تنبت الثمرة الثانية . . . « هذه الشجرة »

فالمرأة مزودة بوسائل الغواية ، موكلة بالمخالفة والامتناع
هى تغوى لأنها ينبغي أن تراد ، ولا ينبغي أن تريد
وهى تشهى المخالفة لأنها تؤمر وتنهى ، أو لأنها رهينة
بإرادة الآخرين

وهذا وذاك ثمرةتان على شجرة واحدة . . . هى « هذه الشجرة »

جمال المرأة

ما الجمال ؟

الجمال كما يبناه في غير هذا الكتاب هو الحرية .

وليس بنا في هذا الكتاب أن نتوسع في شرح معاني الجمال من الوجهة الفلسفية ولا من الوجهة العلمية ، لأن هذا التوسع يخرج بنا إلى آفاق « ما وراء الطبيعة » وينتهي بنا إلى التنكير والتجهيل بدلا من التعريف والتقريب .

فحسبنا من توضيح الصلات بين الجمال والحرية ملاحظة وجيزة تغني عن كثير ، ولاغنى عنها للتمهيد إلى معرفة الجمال كما يتجلى في وظائف الأعضاء ، أو كما يتجلى في المرأة على التخصيص .

فن المتفق عليه أننا لانعرف شعوراً إنسانياً يناقض الشعور بالجمال كما يناقضه الشعور بالخروج والامتناع ، واحتباس الفكر والخطر والإحساس .

ولانعرف شعوراً إنسانياً يوافق الشعور بالجمال كما يوافقه الشعور بالانطلاق والاسترسال ، وأطراد الفكر والخطر والإحساس .

فلا يكون الجمال أبداً في معناه بعيداً من الحرية .

ولانكون الحرية أبداً في معناها بعيدة من الجمال .

وقد تقارب الموضوع من الطرف الآخر إذا ذكرنا أن الحرية المقصودة هنا هي نقيض الفوضى ، كما أن الجمال نقيض الاضطراب والاختلال .

فالحرية تستلزم الاختيار والمشيئة .

وليس للفوضى اختيار ولا مشيئة ولا غاية .

وهذا التباين بين الجمال والفوضى من طرف ، وبين الجمال والحجر من الطرف الآخر - هو الذى يرجع بنا إلى التوحيد بين الجمال والحرية ، لأن الحرية كذلك تناقض الحجر وتناقض الفوضى .

* * *

ونزيد الأمر توضيحاً فنقول إن الحرية التى تمثل الجمال هى الحرية المقرونة بالأوزان والقوانين .

فالحرية بغير أوزان وبغير قوانين هى الفوضى بعينها ، أو هى ليست بحرية على الإطلاق ، لأن الحر هو صاحب الاختيار أو صاحب المشيئة أو صاحب الغاية .

وليس للفوضى غاية ، وليس للمرء فيها اختيار ولا مشيئة .

وإنما يتبين لك مقدار حررتك إذا علمت بين الأوزان والقوانين . . . فاللاعب الماهر صاحب مشيئة وصاحب قدرة إذا سار على الحبل الممدود واستطاع السير فى خفة وظلاقة ، والشاعر صاحب مشيئة وصاحب قدرة إذا عبر عن معناه فى الأوزان والألحان ، واستطاع مع ذلك أن يقول ما يريد .

لأن الأوزان والقوانين هنا هى معيار حرته الذى يبين لنا ماعنده من قدرة وحرية فى الحركة .

وهذا هو الفرق بين القيود الذميمة والأوزان المستحبة : القيود

تقضى على الحرية . والأوزان تبرزها في صورتها التي تعزز المشيئة والاختيار

وهذا أيضاً هو الفرق بين الحرية والفضى . لأن الفضى حركة لا غاية لها ولا مشيئة ، ومن ثم لحرية لها ولا معنى .

ولا تعريف - من ثم - للجمال أقرب من تعريفه بأنه هو كل ما يميل للنفس في الشعور بالحرية الموزونة ، وكل ما يجنبها الشعور بالفضى أو الشعور بالامتناع والتقييد .

* * *

قيل إن الجمال هو التناسب ، وهو قول صحيح ولكنه يحتاج إلى قول صحيح آخر يتمه وينتقل به خطوة أخرى إلى طريق الصواب .

فالجمال يوجد مع التناسب كما يوجد في غير التناسب ، والجامع بين الجمالين هو حرية الحركة في كلتا الحالتين .

لاتناسب في كلب الصيد الأعجم المعقوف الهزيل ، ولكنه يعطينا الحركة الخفيفة الموزونة في تركيبه هذا فهو جميل .

ولاتناسب في شكل الزرافة بالقياس إلى غيرها من الحيوان . . . ولكنك إذا تصورتها كالحصان أو كالأسد تصورت عائقاً لها عن تدبير أمرها وتناول طعامها من فوق رأسها ومن تحت قدميها . وهذا العائق يناقض شعور الجمال . . . فإذا زال لم يكن بينك وبين الشعور بجمال الزرافة عائق من المقابلة بين شكلها وأشكال غيرها من الحيوان .

وهنا قد يسأل السائل : هل معنى ذلك أن الجمال هو أداء وظائف الأعضاء ؟

والجواب لا . ليس الجمال هو أداء وظائف الأعضاء ، ولكن وظائف الأعضاء في الجسم الحي كالوزن في القصيدة وكالحبل تحت قدمي اللاعب وكالالحان في الغناء ، فهي التي تقم لنا الفارق بين الحرية والفوضى ، وهي المعيار الذي نعرف به حرية الحياة في الانتقاء والتوفيق بينها وبين ماتبعيه .

فلولا وظائف الأعضاء لكانت الحياة حركة فوضى لا غاية لها ولا حرية فيها .

ولكنها - بوظائف الأعضاء - هي حركة لها حرية ولها وزن ولها جمال كلما طابقت في حركتها معنى الحرية الموزونة .

• • •

وقيل إن الجمال وليد الغريزة الجنسية ، كما أشرنا إلى ذلك في كتابنا المراجعات .

وأصحاب هذا الرأي جماعة من الأطباء والعلماء الطبيعيين يمثلهم ماكس نوردو حيث يقول :

« كل أثرينيه في الدماغ - بأي شكل من الأشكال - مركز التناسل سواء أكان هذا التنبيه مباشراً أم أتيا من تداعي الفكر وتساقط الحواطر فهو الأثر الجميل . وصورة الجمال الأول في نظر الرجل هي المرأة في سن النضج الجنسي والاستعداد لتجديد النسل ، أي المرأة في عنفوان الشباب والصحة .

ففي محضر هذه المرأة يختلج مركز الغريزة النوعية من نفس الرجل بأقوى الاحساسات وأشد الحواطر وتثير رؤية (الظاهرة) وتصورها عنده

أقوى بواعث السرور التي يمكن أن تستفاد من مجرد النظر أو التصور .
وقد تعود الطبع أن يقرن بين صورة المرأة وفكرة الجمال فيغريه السرور
الذي يستمد من ذلك بأن يصور كل ما يروقه أو يرى فيه معنى من معاني
الجمال في صورة امرأة . فالأمة والشهرة والصدقة والمحبة والحكمة وغيرها
وغیرها إنما تمثل للحواس في هيئة مؤنثة ، ولكن لأثر لكل ذلك فيما
تدركه المرأة وتتصوره لأن رؤية شخص من جنسها لا تحرك بأى شكل
من الأشكال مركز النسل من غريزتها ، ولا تجد المثل الأعلى للجمال
إلا في الرجل . أما ما يشاهد من أن المرأة تكاد تقيس الجمال كله بمقياس
الرجل فسيبه أن الرجل لتفوقه عليها في القوة يستطيع أن يوحى إليها برأيه
وأن يسيطر على أفكارها التي تخالف فكره ، ومع هذا نرى في الواقع
فكرة الجمال عند الجنسين تتقارب ولا تتماثل كل التماثل ، ولو أتيحت
للمرأة القدرة على الاستقلال بالنظر وتحليل ما تشعر به ووصف ما يدور
بوجدانها لأثبتت منذ زمن بعيد أن مذهبها في الجمال يختلف من وجوه
أساسية شتى عن مذهب الرجل فيه .

وهذا الرأي تبطله ملاحظات وجيزة لأنه أقرب الآراء التي قيست في
تعليل الجمال إلى البطلان .

فلا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هي الجمال ، لأن الغريزة الجنسية
نفسها تستعين بالجمال لتمييز امرأة من امرأة وتفضيل أنثى على أنثى .
ولا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هي الجمال ، لأن الغريزة الجنسية
واحدة والجمال حتى في الجارحة الواحدة أشكال وألوان .

ولا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هي الجمال ، لأن الغريزة الجنسية

هى واسطة تجديد الحياة ، ولن تكون الحياة نفسها خلوا من الجمال قبل مايساورها من طلب التجديد .

ولا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هى الجمال ، لأن حظ الاحياء من الجمال أو من الفطنة له ليس على مقدار حظهم من الغريزة الجنسية .

ولا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هى الجمال ، إذ المرأة ليست بالجميلة لأنها امرأة ، وإنما هى امرأة ثم يضاف إليها وصف الجمال . وقد عرضنا المذهب نوردو المتقدم فى فصل من فصول كتابنا

« المراجعات » وأتينا ببعض الملاحظات التى توجب مخالفته ثم قلنا : « إن الغريزة الجنسية لاريب من أقوى الغرائز تفرعا وتوزعا فى جوانب الإحساس ودخائل التفكير ، وأنها ولاجدال على اتصال وثيق بشعور الجمال ومطالب الفنون لانراها منعزلة عنها فيما ينظمه الشعراء ويمثله المصورون ويغنيه المنشدون ، ولكن ليس معنى ذلك أنها هى أصل كل شعور بالجمال وأن الحياة نفسها لاجمال لها إلا من حيث انها علاقة بين ذكر وأنثى ووسيلة لإعطاء الحياة لمخلوق جديد ، فإن الحياة غاية الغريزة الجنسية وليست هى الجسر الذى نعبه إلى الحب والجمال . فإن كانت الحياة فى ذاتها خلوا من معنى جميل أو مقصياً عليها بالحرمان من رؤية الكون فى هيئة تسرها وترضيها وتوسع لها من أكتاف الأمل وتضاعف لها من بهجة الوجود فأى شئ يزيد عليها من انقسام الاحياء إلى قسمين أو جنسين ؟ ثم مافضل البقاء المشوه الذى تنوسل إليه باختلاف دينك القسمين أو دينك الجنسيتين ؟

« أما أننا نتصور الأمة والشهرة والصدادة والمحبة والحكمة وغيرها فى

صورة مؤنثة فإنما يدل على أن للجمال في أذهاننا معاني كثيرة غير معنى الأنوثة ، وأتينا نصور تلك المعاني في صورة المرأة لأنها « الشخص المحسوس المحبوب » الذي تقدر الفنون على إبرازه للعيان . ولولا ذلك لما جاز التشابه بين مثال المعاني في الذهن ومثال المرأة في النظر ، مادامت المرأة قد استأثرت بكل صفات الجمال في هذه الحياة .

« ويقابل هذا أننا نصور الخواطر القوية في هيئة الرجولة ولا نستخلص من تصويرها كذلك أن العلاقة بين الرجل والمرأة هي أصل كل مافي الحياة من بأس وقوة وسبب كل ما يتصوره العقل من قدرة ونفاد . على أن تماثيل الرجال في الفن اليوناني والروماني لاتقل عن تماثيل النساء ، والاعجاب الفني بجمال جسم الرجل لا ينقص عن الاعجاب الفني بجمال جسم المرأة ، فلماذا يعجب الفنانون بأمثلة الجمال في أجسام الرجال ان كان في غريزتهم ألا يحبوا الجمال ولا يتخلوه إلا في أجسام النساء ؟ » .

* * *

غير أننا إذا نفينا أن الغريزة الجنسية هي الجمال أو هي مصدر الشعور بالجمال فلا يستلزم ذلك أن ننفي العلاقة بين شعور الجمال ووظائف الأعضاء .

لأن الرجوع إلى وظائف الأعضاء لازم لقياس حرية الحياة في أداء تلك الوظائف على وجه لانقصان فيه ولا زيادة .

ومثلها في هذا - كما قدمنا - هو مثل الأوزان والبحور التي تقاس بها حرية الشاعر في التعبير وقدرته على التصرف بالمعاني والألفاظ

أو هو مثل كل وزن وكل نظام مطرد في فن من الفنون الجميلة :
ليس مكانه أنه قيد عائق معطل للحرية ، بل مكانه أنه مقياس الحرية
الذى يميز بينها وبين القوضى المطلقة بغير وزن أو نظام وإلى غير غاية أو
استقامة .

ومتى عرفنا أن وظائف الأعضاء هى مقياس الحرية والجمال في جسم
الإنسان - عرفنا كيف يكون جمال المرأة أو كيف ينبغي أن يكون .
فجسم المرأة جسم تابع وليس للجسم المستقل الذى لا ينظر في تكوينه
إلى غيره .

جسم الرجل الجميل جميل التكوين لذاته لا لأنه منظور فيه إلى
مخلوق آخر يتوقف عليه .
هو الجمال في صورة الاستقلال .

أما جسم المرأة ففيه الثديان ، وفيه الرحم الذى يحمل الجنين ، وفيه
تركيب الحوض الذى يختلف به قوام المرأة وقوام الرجل في نماذج
الجمال ، مع اختلافها بالكتفين والصدر والتنفس تبعاً لذلك
الاختلاف ، ومع اختلافها تبعاً لذلك الاختلاف أيضاً بما تحت البشرة
من طبقة دهنية لاشك أنها مفضلة في جسم المرأة لحماية الجنين
فهذه التبعية واجبة في ملاحظة جمال المرأة والحكم عليه .

وتحضرنا في هذا الصدد نماذج ثلاثة للجمال لعلها هى النماذج
الإنسانية التى تستحق العناية بها عند كل بحث فيه .

وهى النموذج العصرى ، ونموذج العرب ، ونموذج اليونان .

فالعصر الحاضر عصر الخفة والآلة السريعة والقصد في الوصول إلى
الغاية يميل إلى التخفيف من جسم المرأة ويبالغ فيه ، وتؤدي به المبالغة
أحياناً إلى الخطأ والعجلة ونسيان الفروق الطبيعية في سبيل المظاهر
الصناعية . فيكاد أن يسوى بين قوام المرأة وقوام الرجل وهي تسوية
يقرب به من التشويه لإهمالها النظر إلى وظائف الأعضاء . . . ويكاد أن
يحصّر الجمال النسائي كله في قالب واحد يشبه القوالب الثابتة التي جمدها
عليها فن الفراعنة في أطوار الركود والاضمحلال .

والعرب أصبح ذوقاً من الممّلين المحترفين في العصر الحاضر لأنهم
يصفون المرأة الجميلة كما ينبغي أن تكون .

فكعب بن زهير أصبح من معاهد الجمال العصرية حين يقول في
وصف مثال الحساء عنده وهي « سعاد » :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

ومثله عمر بن أبي ربيعة حين يقول :

إني رأيتك غادة خمصانة ريا الروادف عذبة ميثارا^(١)

محطوطة المتنين أكمل خلقها مثل السبيكة بضّة معطارا

أو حين يقول :

أبت الروادف والتدئ لقمصها مس البطون وأن تمس ظهورا

فالذوق العربي أصبح من ذوق الآلة السريعة في العصر الحاضر كما

أسلفنا في كتاب « شاعر الغزل » حيث قلنا أنهم « . . . كانوا يستحسنون

من جمال المرأة الوضاعة والهيّيف والرشاقة والخفر ويشيدون بهذه السمات

(١) ألبشار حسنة البشرة .

فى كل ما روى عنهم من غزل البداوة . وكانوا يحبون مع الهيف والرشاقة أن تكون المرأة بارزة النهود والروادف ، وهو ذوق لا يخرج بهم عن سواء الفطرة كما يشبه لنا حب الجمال وعلم وظائف الأعضاء . فهم فى ذلك أصح ذوقاً من أساتذة التجميل المعاصرين الذين أوشكوا أن يسووا بين قامة المرأة الجميلة وقامة الرجل الجميل فى استواء الأعضاء . فما يعيب المرأة عضوياً أو - فزيولوجياً - أن تكون رسحاء ضئيلة الردفين . أنها خلقت بحوض عريض ملحوظ فيه تكوين الجنين . فإذا كانت صحيحة البنية سوية الخلق وجب أن تكتسى عظام فخذيها وعجيزتها وأن يمتلئ فيها هذا الجانب من جسمها ، وإلا أشار هزاله إلى آفة فى تكوين الجسم لا توافق حاسة الجمال . وكذلك يستحسن الخصر الدقيق فى المرأة لأن ضخامة المعدة قد تؤذى الجنين وتضغط عليه فى الرحم وتشير إلى التريد فى الطعام فوق ما تستدعيه وظائف الحياة فى جسم الإنسان » .

أما الذوق اليونانى فقد نظر إلى التكوين المتين وميزه على التكوين الرقيق ، فكان وسطاً بين المثل الأعلى لجمال المرأة عند العرب والمثل الأعلى لجمالها عند المعاصرين .

وقد تلتقى الأذواق إذا تركنا المثل الأعلى جانباً ونظرنا إلى الأمثلة الشائعة فى عصور الحضارة عند هذه الأمم جمعاء .

فالترف وحب الظهور بالوفر والراحة قد حبب إلى العرب نماذج البضاضة . والرخاسة . فوصفوا لنا أحياناً مثلاً من الجمال البكسل المتناقل يعاب فى الذوق السليم .

واليونان قد حفظوا لنا تماثيل رشيقة لجسم المرأة لأنهم مزجوها بالرشاقة الغلامية التي كانوا يمدونها في أجسام فتية الرياضة. وألعاب الفروسية .

ومجاميع الصور المشهورة في العصر الحاضر لا تستغني فيما تعرضه بين حين وحين عن نماذج العرب ونماذج اليونان .

ومن الواجب على كل حال أن نذكر أن الجسم الجميل غير الجسم اللذيذ وغير الجسم الصحيح وغير الجسم القوى وغير الجسم النافع ، لأن الجسم قد يكون نافعاً أو قوياً أو صحيحاً أو لذيذاً وهو في كل ذلك غير جميل .

قيل لبعض الحكماء : إن فلانة كبيرة البطن ضخمة الثديين فقال : « نعم . حتى تدفئ الضجيع وتروى الرضيع » . . . فهذا وصف صادق للجسم النافع ولكنه لا يستلزم جمال الجسم الموصوف . . كما يقال أن هذا الكساء يدفئ صاحبه ويعيش سنوات ولا يستلزم ذلك جماله فيما يكون به جمال الكساء .

ووصفت في الشعر العربي واشعار الأمم كافة نماذج من الأجسام المشتهة . كما مثلت هذه الأجسام كثيراً في الصور والتماثيل .

فإذا كان هذا وأشباهه وصفاً لشيء فهو وصف للجسم الشهى أو الجسم اللذيذ . وليس بوصف للجسم الجميل على اعتبار الجمال معنى من المعاني التي تقاس بالادراك . كما يقاس معنى البيت البلوغ . ومعنى الصورة البارعة ، ومعنى المثال المتقن ، ومعنى الخيال المجرد . ومعنى الحلم البعيد .

ولا ننسى أن الجسم الجميل يشتهى . ولكننا نريد أن نذكر من ينسى أنه ليس بالجميل لأنه مشتهى أو مريض للغريزة الجنسية . بل هو جميل لمطابقته معنى الجمال فى الإدراك . وهو الحرية الموزونة .

والرجال فى تفضيل الجسم الشهى أو الجسم اللذيذ مذهبان مختلفان : رجل عنده عادة الاستحسان كمادة التدخين . فهو يألف طرازاً واحداً من المرأة كما يألف المدخن لفيفته المعهودة . فلا يغيرها ولو كان الخلاف بينها وبين غيرها كالخلاف بين علامة الجمل وعلامة الخلطة السعيدة . وهما من أصل واحد !

فهذا الرجل إذا استحسن المرأة الطويلة لم تعجبه القصيرة ، ولو كانت لها ملاحظة ونضارة ومتعة وحلاوة .

وإذا استحسن السمراء لم تعجبه البيضاء ، أو استحسن بنت العشرين لم تعجبه بنت الثلاثين ، أو استحسن المصرية لم تعجبه الانجليزية أو الروسية ، وهما معجبتان .

والمذهب الآخر فى تفضيل الجسم الشهى أن يستحسن الرجل النساء كما يستحسن الفاكهة أو كما يستحسن صحاف الطعام ، والمعول على صناعة الطاهي وغواية الأوان .

فالتفاح مقبول ، والبرقوق كذلك مقبول ، والتين لايرفض والجنيز لايعاف ، والشواء مستطاب ، والسّمك المملح له وقت يجوز اشتهاؤه فيه !

* * *

وتنبغى التفرقة على كل حال بين هذه الأجسام حين ينظر إليها للذة وهذه الأجسام حين ينظر إليها للجمال .

لأن الجميل واللذيذ قد يتفقان ، ولكن الجمال واللذة قد يتناقضان ،
فتكون اللذة تغلياً لجسد ويكون الجمال تغلياً لمعنى ، وهو كذلك في كل
مظهر وفي كل حال .

فالجسم الجميل هو الذى تترن فيه وظائف الحياة بغير زيادة
ولانقصان ، لان الزيادة فضول غير مطلوب يشير إلى دافع واغل
لاستدعيه وظائف الحياة ، ولأن النقصان آفة مكروهة تشير إلى تقصير
وتقييد .

وآية الجسم الجميل أن تنهض أعضاؤه حرة سلسلة ميسورة الحركة
لا ترى عضواً منها عالة على سائر الأعضاء ، يخيل إليك أن كل عضو فيه
يحمل نفسه غير محمول على سواه .

ومن هنا جمال الرأس الطامح ، والجيد المشرب ، والصدر البارز ،
والخصر المرهف الممشوق ، والساق التى يبدو لك من خفتها وانطلاقها
واستوائها أنها لا تتحمل شيئاً من الأشياء ، ولا تنهض بعبء من الأعباء .

بل من هنا جمال الحيوان الأعجم ، وجمال المهر الكريم وقد اختل
بعنقه وشال بذنبه : وضمير بدنه وأصبح في الجملة كالكلام المختصر
المفيد ، والكلام المختصر البليغ ، لأنه يبلغ حيث شاء .

والجسم الجميل الذى نشهده على هذا المنوال تراه العين ولا تحس أنها
أدركته ، لأنها إذا أدركته تأملت فيه وسرحت في معانيه ، فإذا هى بعيد
بعيد . . . أبعد من الفراش الذى يقع عليه الطفل فإذا هو على الغصن ،
ويشب إليه في غصنه فإذا هو في الهواء .

هو مدرك نفوس وأرواح وليس بمدرك نظرات ولمسات

ومن هنا قلنا ان الجمال واللذة قد تتناقضان ، لأن الجمال معنى تفرغه على جسد ، واللذة جسد قبل كل شيء .

ولن يتمثل هذا الفارق في شيء كما يتمثل في الحركة الجميلة من الجسم الجميل : أى في الرقص الفنى الرفيع .

فالراقصة وهى تتأيل كما تريد على أطراف أصابعها ترتفع بالجسم إلى عالم المعانى التى تسخر المادة لحركاتها ولا تحفل بقانون الجذب الذى يتسلط على الأجساد الأرضية من الأحياء وغير الأحياء فهى هنا كالشاعر الذى يحظر له المعنى فيلتمس له جسما من الألفاظ مطيعاً لمعناه . أو كالمثال الذى يشيع فى نفسه الجمال فيلتمس له قالباً من الدمى الحسان يفرغه عليه ، وكالخاطر الذى ينطلق من عالم الأفعال والضرورات إلى عالم لاثقل فيه ولا ضرورة

أو هى تطوع الجسد للحركة الحرة ، وهى حرة لأنها موزونة تدل على المشيئة ، ولو لم تكن موزونة لما كانت لها غاية ولا مشيئة ولا كانت لها حرية ولا جمال . وإنما تكون هى « الفوضى » بغير وزن ولا اختيار ولا جمال .

هذه الحركة الجميلة من ذلك الجسم الجميل تطلق الناظر إليها من عالم الأجساد إلى عالم المعانى والأفكار .

وعلى بقبض ذلك حركة الجسم الذى يستهوى اللذة فيبنى المعانى والأفكار ويقيدها بالحسّ والمادة والأبدان .

ويختلط الأمر فى هذه الفوارق بين الأجسام الجميلة والأجسام اللذيذة كلما هبطت الأهم من أوج الحرية إلى حضبيض المهانة والخضوع .

فالمصريون في عظمتهم الأولى قبل آلاف السنين كانوا يستعملون من
الأجسام كل حر رشيق ويعملون الأمثلة العليا للجمال تلك الصور التي
يوشك أن تطير من الخفة . كما نراها على بقايا الآثار

ثم هبطوا من أوج الحرية إلى حضيض المهانة والخضوع فركدوا
ركود البطء والكسل . وأصبحت الكثافة الواهنة عندهم مقياس
الملاحه والقسامة . وأصبح جمل الحمل أو « التختران » مثال الحسن
المطلوب في النساء : تعلق المرأة السمينة وتهبط في مشيتها وماتنتقل شبراً
واحداً في أقل من خطوتين . والمقرظون من حولها يهللون ويكبرون
ويباركون الخلاق العظيم . ويعوذون هذا الجرم الذي لاتمضى فيه
اسيوف . . . من لحظات العيون ومن حسد الحاسدين !

ثم ثاب العالم كله إلى مذهب المصريين الأقدمين في جمال النحافة
والرشاقة والنسج الدقيق . وشاع هذا المذهب بعد الحرب العالمية الماضية
أشد من شيوعه في زمن من الأزمان ، حتى غلا بعضهم فأوشك أن
يلتمس الجمال في الهياكل العظمية . وهي على أية حال أقرب إلى الجمال
من هياكل الشحوم واللحوم !

ومانحسبها نفحة من نفحات الفن العلوى هبت فجأة على أذواق
الناس في العالم كله فأصبحوا جميعاً من صاغة التماثيل الملهمين . فإن
هذه النفحات أغلى وأرفع من أن تكال جزافاً للملايين من الخلق في
المغرب والمشرق . وبين الأذكاء والأغنياء . وعند من يحسون
ولا يحسون .

ولكنها « الطيارة » قد أتمت مذهب السرعة في كل شيء ، والسرعة
والخفة لاتفترقان ، والخفة والسمنة لاتتفقان .

وهكذا تعلمنا الآلات أحياناً كيف نشعر وكيف نتذوق الجمال .
وكيف نصصح الأذواق.!

* * *

والمرأة الجميلة - بعد هذا - ليست بشيء واحد يقاس بمقياس واحد في كل ماتبديه وكل ماتحتويه . لأنها جملة مجتمعة من الأشكال والألوان والحركات والمعاني يقاس كل منها بمقياس الجمال الذي قدمناه . وهو الحرية الموزونة . ونستطيع أن نقول « الحرية » وكفى ؛ لأن الحرية كما قدمنا تستدعي الوزن والقانون . لتظهر فيها لمشيئة والغاية ، وهما قوام الاختيار الذي لا تكون الحرية بغيره ، وليتضح الفرق بينها وبين الفوضى وهي أقرب إلى العدم منها إلى الوجود

ولكننا نقول الحرية الموزونة تقريراً لهذا المعنى وتبييناً القدرة التي هي معيار الحرية ومعراج الارتقاء فيها ، فالقاتل الذي يعبر عن شعوره في النظم الموزون أقدر على القول وأبين عناصره للتصرف فيه ممن يقول هذا القول بعينه في الكلام المنثور .

ويقال لكل جميل في المرأة بهذا المقياس : فأجمل الوظائف هي الوظيفة التي تجرى إلى غايتها في جسم لافضول ولانقص فيه ، وأجمل الحركات والألوان أو الأشكال أو الحركات تجمل وترتقي إلى عالم المعاني كلما أطلقت في النفس شعور الحرية بين الأوزان ، أي كلما ابتعدت بنا من شعور الفوضى وشعور التقيد .

فإذا اتفق للمرأة لون جميل وشكل جميل وحركة جميلة فتلک غاية الغايات التي قلما ندرك في العالم المحسوس ، وقد يتفرغ اللون على ألوان

والشكل على أشكال والحركة على حركات ، فلا ينبغي أن ترجع بها جميعاً إلى مقياس واحد لأن المرأة في اللغة مخلوق واحد يعرف بهذه اللفظة الواحدة .

ومتى أحضرنا هذا في إخلادنا فقد حسبنا للتناقض حسابه في بعض الأحكام على جمال النساء . فقد تكون المرأة على جملتها موصوفة بالجمال وفيها جانب يخالف معنى الحرية والاتزان . فإنما الحكم الصحيح على جمالها أن يقاس هذا الجانب بمقياسه ولو خالف في الحرية والاتزان ماعده .

وكذلك يقال في قياس النقص أو العيب كلما شعرنا به ورجعنا إلى سببه . فلن يكون سببه إلا أننا نشعر إزاءه بشئ من التقييد واختلال نيزان .

فتعاب المرأة القصيرة ، وإن تمت لها محاسن الوجه والحركة . لأنها توحى إلينا الشعور بعائق يصددها عن بلوغ القوام المعهود في النساء والمرأة التي تطول كفاها أو قدماها تعاب ، لأن طول الكف أو طول القدم يوحى إلى النفس أن تمني قواماً أطول من هذا القوام ، فتشعر بالعائق المانع حين تنظر إلى القوام فإذا هو دون ما تتمناه . وليست قلة التناسب هنا هي علة النقص والعيب كما يخطر للذين يحسبون أن التناسب هو الجمال . فإن قلة التناسب لا تضايقنا إذا هي لم تقترن بشعور التعويق والامتناع . كما قد رأينا في مثال الزرافة وكلب الصيد .

والقوام الجميل حسن في البياض والسواد على السواء حيناً نظرننا إلى الشكل والحركة دون الألوان والشيآت . فإذا تجاوزنا الشكل والحركة إلى

الألوان والشيآت فالبياض الذى لا يمتس به شعاع من النور ولا صبغة من اللون أجمل من البياض .

* * *

وصفوة القول فى ذلك جميعه أن الشعور بالحرية الموزونة هو الشعور بالجمال .

وأن وظائف الأعضاء هى الميزان الذى توزن به الحرية فى أجسام الأحياء ، من الرجال والنساء .

وأن تكوين المرأة على حسب وظائف أعضائها ملحوظ فيه تكوين المخلوق الذى تحمله فى احشائها ، وتكوين المخلوق الذى تستويه بصلاحها لخدمة نوعها ، فجعلها عن هذا جمال تابع مضاف وليس بالجمال الذى استقل بالكفاية والتمام .

* * *

ويلحق بالكلام على جمال المرأة كلام متصل به عن شعور المرأة بالجمال

فمن سهو الفكر أن يعتقد بعض الناس أن المرأة أخبر بذوق الجمال لأنها جميلة فى أعين الرجال .

وموضع هذا السهو ظاهر لا يحتاج إلى تأمل طويل . فليس باللازم من اتصاف الشيء بالجمال أن يتصف بذوق الجمال أو يشعر به أحسن شعور أو أقل شعور .

فالجواهر جميلة ولا حس لها ولا حياة ، وفى الحيوان ماهو جميل ولا دراية له بفنون الجمال ، ومنه ما يغنى ولا يفقه أسرار الغناء

فجمال المرأة في عيني الرجل لا يستلزم تفوقها في حس الجمال وتميز
شياته وألوانه . ولعل تمييز الجمال لا يعني أناث الإنسان كما يعني ذكره .
لأن المرأة تستمال بقوة الرجل قبل أن تستمال بمحاسن وجهه ومراه . فإنما
تعنيها منه الصحة والقوة وتميز ملامحه كل لحظة منها على انفراد ، خلافاً
للرجل الذي يؤخذ بأثر ملامح المرأة في جملتها قبل أن ينظر إلى تفصيلها .
وهو فارق معقول على حسب الفارق بين موقف الرجل وموقف
المرأة في تلبية الغريزة الجنسية . فالرجل عليه أن يلتفت لأنه هو الذي عليه
أن يختار ، ومن ثم كان من الضروري لالتفاتة أن يلمح جمال المرأة وأن
يؤخذ بأثره على الإجمال .

والمرأة - ولا سيما المرأة على فطرتها الأولى - تنتظر دورها الطبيعي وهو
التسليم للغالب السابق من الرجال . فسواء لديها أن تتأثر بملاحمه أولاً تتأثر
بها بعد أن تأثرت بقوته وغلبه ، وإنما يبقى لها أن تميز ملاحمه على حسب
صحتها ومنفعتها لأعلى حسب أثرها الخاطف في عينيها . فتعرف مثلاً
جمال العين وجمال الأنف وجمال الفم كل منها على حدة ولو لم يكن لها أثر
خلاف وهي منظورة في جملتها .

ويندر أن ترى رجلاً ينسى الأثر الجميل من النظرة الأولى في سبيل
جمال الأعضاء والجوارح على التفصيل .

وعلى نقيض ذلك يندر أن ترى امرأة تنسى جمال الأعضاء والجوارح
على التفصيل في سبيل الأثر الجميل بالغاً ما بلغ من الروعة والاستهواء
وتصدق هذه الملاحظة على الجمال في معانيه الفنية كما تصدق على
الجمال في صورته الجسدية . فتمييز المرأة له محدود لم يبلغ قط مرتبة

الإبداع والخلق والتفنن في غير فئة قليلة جداً من النساء وعلى طبقة لم ترتفع قط إلى أرفع الطبقات .

فيندر جداً في النساء من تبذل الجمال في فن من الفنون ، سواء كان الشعر أو التصوير أو الموسيقى أو التمثيل .

وقد تبرع في التمثيل لأنه يوافق عندها سليقة الرياء والتظاهر والاصطناع ، ولكن التمثيل تمثيلان متفاوتان في القدرة الفنية وعمل القرحة الإنسانية : وهما تمثيل الخلق والإنشاء وتمثيل المحاكاة والتقليد . ونادر جداً في كبار الممثلات من تجاوزت دور المحاكاة والتقليد إلى دور الخلق والإنشاء .

ومن الخطأ أن يقال إن تخلف المرأة في الفنون الجميلة قد نشأ من اخجر عليها في عصور الجاهلية الأولى .

ففي عصور الجاهلية الأولى كان الحجر شاملاً للضعفاء من الرجال والنساء على السواء . ومع هذا نبغ الشعراء والفنانون من طبقة العبيد والسوقة . ولم يكن عدد الحاكمين المسيطرين الذين نبغوا في الشعر والفنون على اختلافها مريباً على عدد النابغين من المحكومين المسخرين . سواء منهم السفلة الأذلاء والأوساط الذين لا يصيبهم الظلم كما يصيب من دونهم في الطبقة الاجتماعية .

وأيا كان القول في عموم الحجر على الجنسين أو على جنس واحد فالذي لا ريب فيه أن المرأة لم يحجر عليها في الغناء والعزف على الآلات كما لاحظ بعض الباحثين . . . ومضى دهر طويل على الأمم الشرقية والغربية وهي تحسب الغناء صناعة نسائية وتأخذ المغنيين والعازفين من

الذكور أن يرسلوا الشعور ويتزوا بزى النساء . ولم يتجاوز حظ المرأة من الغناء طبقة الأداء الحسن إلى طبقة الخلق والإبداع

ويقال فى صناعة التطريز مايقال فى صناعة الغناء والموسيقى على التعميم ، فقد شغلت بها المرأة من عصور البداوة وثابت عليها فى عصور الحضارة ، ولم تساو الرجال الممتازين بإبداع الطرز والنماذج والأشكال . فشعور المرأة بالجمال محدود ، وقد تكون تابعة فيه أو خاضعة للإيحاء والشهرة سواء من الجماعات أو الأفراد ، وفى وسع فرد واحد أن يوحى إلى المرأة شعورها بجماله إذا تسلط عليها بإرادته ، فتؤمن من طريق الإيحاء أنه لجميل ، ولا يمتنع أن يوحى إليها هذا الشعور إلا أن يكون شنيع الدمامة لاتجوز المغالطة فى قبحه من النظرة الأولى . . . وإلا فهو بالغ من اقناعها مايريد .

وميل المرأة إلى الرجل المشهور بجماله يخالف فى طبيعته ميل الرجل إلى المرأة المشهورة بجمالها .

فشهرة المرأة بالجمال تشخذ فى نفس الرجل طبيعة غير الطبيعة التى تشخذها فى نفس المرأة شهرة الرجل بالجمال .

وهذا الفارق بين هاتين الطبيعتين هو الفارق كل الفارق بين الجنسين فى كل مايمتثلان فيه .

إن المرأة التى تتصدى بجمالها لأعين الرجال تبعث فى نفوسهم حب المسابقة والتنافس وتنميه بلذة الظفر والغلبة على الأقران ، وقد تكون متعتم بالوصول إليها وتنحية الأقران عنها أعظم وأروح من متعته بشمائلها ومحاسن جسدها ومحياها .

أما المرأة فشهرة الرجل بالجمال عندها تؤكد الإجماع والتكرار وتملكها من ناحية التنويم وشل الإرادة والتمييز . فهي تنقاد هنا لأن الناس يقولون . ولأن مايقولونه يخامر يقينها كما يخامر الموثم بالتوكيد والتكرار يقين الموثم .

فالظفر بالجميلة المشهورة يرضى في الرجل طبيعة الزهو والثقة . والظفر بالجميل المشهور يرضى في المرأة طبيعة التسليم والخضوع . وهذا هو الفارق بين الجنسين في كل شيء .

وصفة مايقال في شعور المرأة بالجمال أنه شعور ينقاد للقوة والإجماع . ولايرتقى إلى طبقة الخلق والإنشاء .

أما جماها فالرجل هو الذى يميزه لأنه هو المقصود به ليلتفت إليه ويسعى سعيه في الغلبة عليه .

وهو غواية المرأة التى تقابل بها إرادة الرجل منذ حيل بينها وبين أن تريد وأن تصرح بما تريد .

وهو على سلطانه الذى يغالب الإزادة ويغلبها في كثير من الأحيان إنما هو أظهر غوايات المرأة وليس بكل ماعندها من أسباب الاغراء . كما أسلفنا في الكلام على غوايتها وأسبابها .

ولانبعد بالتشبيه إذا قلنا إنه كالنور الذى ترفعه الطبيعة على حانوتها لتعلن عنه الاضطرار إليه . او كالعلاف المزخرف الذى تلف به طعمتها لتفتح للهوات

وتسعر أوار السغب في كل أوان وقد منحت المرأة الجمال الذى يستهوى الرجل لأن الرجل يطلب الحرية ويختار . والجمال هو الحرية التى يكلف بها من يكلف بالاختيار .

وليس من المصادفة التى خلقت من المعنى أن تستهوى المرأة بالخضوع للقوة وأن يستهوى الرجل بحب الجمال .

فهما الحرية والتسليم . يتقابلان كما يتقابل الجنسان .

تفاوت الجنسين

إلى هنا وضع الفارق الأصيل الذى تدور حوله جميع الفوارق
الطورية بين الجنسين : ونعنى به الفارق بين الإرادة والإغواء .
وتتعلق بالإرادة جميع ملكات الابتداء والإنشاء والابتداع فى
المسائل الحسية والمسائل الذهنية والنفسية على السواء .

فالمرأة لا تبتدئ ولا تبتدع فى صناعة من الصناعات أو فن من الفنون
وإن طال عملها فيه وانقطعت له أحقابا بعد أحقاب . فإذا شاركها
الرجل فى الطهى أو الحياطة أو النسيج أو التزيين والتجميل - وهى
صناعاتها التى غيرت على مزاويلها مئات الأحقاب - كان له السبق
بالتجويد والافتنان ، واستطاع فى هذه الصناعات نفسها أن يستأثر
بإقبال المرأة وثقتها دون من ينافسه فيها من النساء .

ومنذ القدم كانت المرأة تنوح وتبكي وتطيل الرثاء والحداد على
الأموات . ولكنها لم تنظم فى الرثاء قصيدة واحدة تضارع قصائد
الفحول من الشعراء الذين لم ينقطعوا للرثاء ولم ينظموا فيه إلا عرضاً فى
الآونة بعد الآونة . كلما ألعبهم الحزن على فقيده عزيز .

ولا ينكشف قصور المرأة عن الابتداء والابتداع فى فن من الفنون كما
ينكشف فى فن الغناء والموسيقى على الإجماع

فقد ظن خطأ أن الغناء صناعة نسائية ينبغي أن تحذقها المرأة كما يحذقها الرجل أو ترى عليه . وقد سنحت لها فرص الحذق والاتقان في هذا الفن بين القصور وفي الأكواخ والأسواق فلم يؤثر لها ابتكار في التلحين ولا اختراع في الآلات ولا افتنان في معاني التعبير بالألحان والأصوات .

والخطأ هنا من سهو الفكر كالخطأ في تمييز الجلال وذوق الحسن والاستحسان . إذ الواقع أن الابتداء بالغناء أيضاً خاصة من خواص الرجل الجنسية لا معنى لتفوق النساء فيها ، ولهذا يستوفى صوت الرجل ثمائه بعد البلوغ ويعظم تجويف صدره وتكمل أوتار حنجرتة وتم له عدة المخرج الصوتية حيناً تتم له مقومات الرجولة وملكات . . . وينعكس الأمر إذا سلب هذه المقومات والملكات . فتضعف حنجرتة وتضيق كتفاه ويشبه صوته بأصوات النساء والأطفال . وقلاً يلحظ التغيير على مخارج المرأة الصوتية بعد المراهقة أو بلوغها مبلغ النساء .

وعلة ذلك ظاهرة ، وهي العلة التي قدمناها في هذا الفصل وفي الفصول السابقة . ونعني بها أن الرجل هو الذي يريد وهو الذي يطلب المرأة ويسمعها نداء الرجولة دعاءً وغناءً فيقترن تمام الصوت فيه بتمام صفات الرجال .

والفارق في التركيب كاف وحده لإدراك الفارق بين الجنسين في الملكات والقرائح وفنون الابتداء والابتكار .

ولكن الواقع المشهود من قديم الزمن يغني في بيان هذا الفارق ما ليس يغنيه اختلاف التركيب .

لأن الواقع فعلاً أن المرأة لم تبتكر في صناعة من الصناعات . غير
مستثنى منها تلك الصناعات التي انقطعت لها وتوفرت عليها أحقاباً طويلاً
قبل أن يتوفر عليها الرجال .

ومن السخف أن يقال إنها قد تخلفت في هذا المجال لأن الرجل قد
حجر عليها وقيدها بما يرضى هواه دون ما يرضى ملكاتها وأذواقها فإن
الرجل لم يحجر عليها في الطهي ولا في الخياطة ولا في الغناء ولا في الرثاء .
وأن حجره عليها هو نفسه دليل على نقصها في القدرة البدنية والقدرة
الذهنية . وأنها بالقياس إليه في المرتبة التالية على كل حال .

وقد عاش بعض الراهبات كمعيشة الرجال الرهبان في القرون
الوسطى بين الأديرة والمعاهد الدينية والعلمية . وانقطع هؤلاء انقطاع
هؤلاء للعبادة والتلاوة ونسخ الكتب وترجمتها والتفكير فيها ، فلم يعرف
لامرأة راهبة فضل في القراءة أو النسخ أو الترجمة كالفضل الذي عرف
لمئات من الرهبان وعزى إليه أحياء نهضة العلوم بعد القرون الوسطى .

فهذا الفارق بين الجنسين من الفوارق التي يشهد بها التركيب كما
يشهد بها الواقع المتواتر في جميع الأمم القديمة والحديثة .

ومداه واسع جداً لا ينحصر في مزايا القريحة . ولكنه يتخطاها كثيراً
إلى مزايا الروح والأخلاق .
ولتضرب لذلك مثلاً نصيب الرجل ونصيب المرأة من الزواج
الأدبية والروادع النفسية .

فهذه الزواجر أو هذه الروادع ترجع إلى مصادر ثلاثة يخيل إلى المتعجل أنها واحدة ولكنها متفرقة المعادن والأصول :

زاجر الدين ، وزاجر العرف ، وزاجر الأخلاق .

وليس معنى التفرق في معادن هذه المصادر وأصولها أنها تتناقض ولا تتفق على نهج واحد . بل معناه أن الإنسان قد يمتنع عن المحرم بوازع من الأخلاق ووازع من الدين ووازع من العرف في وقت معا ، وقد يمتنع عنه بوازع منها دون الوازعين الآخرين

فالمرأة نصيبها الذى يبرز فيها من هذه الزواجر هو نصيب العرف والدين ، ولا سيما الدين الذى يرجع إلى الخوف والتسليم . . . وكثير من دين الجهلاء لا يرتفع إلى الحب والفهم كدين الخاصة وذوى الرأى والدراية .

أما الرجل فنصيبه الذى يبرز فيه من هذه الزواجر هو نصيب الأخلاق ، لأن الأخلاق هى الزواجر التى يفرضها المرء على نفسه ولا يفرضها عليه العرف الشائع أو العقيدة المصدقة ، أو سلطان القادة والرؤساء .

والأخلاق من ثم صفة من يريد .

والعرف والخوف الدينى صفة من يراد وينقاد .

فالرجل كائن أخلاقى . والمرأة كائن طبيعى يجرى على حكم البيئة الطبيعية ، وليس لها أخلاق بل عادات وشعائر وأحكام .

على أنها هى العادات والشعائر والأحكام التى تسير الغريزة الجنسية - أو الطبيعية الأولى - حيث تسير .

فند القدم أمر الدين المرأة بالصيام عن الطعام في موسم من مواسمه المرعية ، فلم تصبر على الصيام كما صبر عليه الرجل ، ولم تزل تراوغ حكم الدين وهي في سن الشباب إلى أن يتجافاها الجبال ويعرض عنها الرجال .

ولكن المرأة الحديثة تتجشم من الصوم ما لم يتجشمه كثير من النساك لإعجاب الأعين واجتذاب الأهواء ، وتجتنب الطعام اللذيذ والشراب المشتهى لتجتنب السمعة التي يعافها الرجل في هذا الزمان ، وليس اجتناب المطاعم والمشارب بالأمر الهين عندها وهي حسية جسدية في ميولها ولذاتها . ولكن الظفر بالاستحسان عندها فردوس يهون في طلبه كل هذا الصيام الثقيل .

والصلوات - التي تنصلت منها ما استطاعت - هي شيء هين بالقياس إلى حركات الرياضة والتدليك ومتاعب الكساء الضيق والتلوين والتزويق ، ولكنها لا تثقل عليها كما تثقل الصلاة ، إذا كان وراء هذه المتاعب جزاؤها السريع من نظرة إعجاب أو كلمة إطراء .

* * *

ولا يسيطر تركيب المرأة على إرادتها من هذه الناحية دون غيرها . بل هو مسيطر عليها من نواحي شتى غير هذه الناحية ، ومنها - على التخصيص - ذلك التناقض القوي بين الحزم وطبيعة الأنوثة في صميمها ، وهي الطبيعة التي تفرض عليها الحمل والرضاع والحضانة وألا تبالي بعواقبها وإنها لمرهقة معتة شاقة على النفس والجسد . . . وقد كانت في الآباد الغابرة خطرة قاتلة تنهك من لائمت .

فالحزم هو أن ينسى المرء العاجل في سبيل الآجل ، وأن يبعد النظر إلى الغد ولا يقصره على الحاضر الذي هو فيه .

ولو رزقت المرأة هذا الحزم لما استجابت مرة من عشر مرات لضريبة النسل المفروضة عليها . فالذي رزقته إذن هو نقيض الحزم وهو نسيان الآجل في سبيل العاجل وإثارة السرور القريب على الغم البعيد ، أو هو استجابة الأثر الحسى والإعراض عن نذير الحكمة والروية وهداية التأمل والتفكير .

وإذا بدا منها الحزم في موقف من المواقف فامتنعت عن لذة تغريها فتفسير ذلك لذة أخرى مركزة لديها غالبية على تلك اللذة التي امتنعت عنها .

فترفض مثلاً الطعام لأنها مغرمة بالكساء ، وترفض المال لأنها مشغولة بشعور الأمومة ، أو ترفض الوسامة لأنها منقادة للقوة ، أو ترفض كل هذه الغوايات لأنها لانتحس بإغرائها إلا عند مسيس الحاجة إليها ، ولا تحفل بحاجة الغد مادامت غنية عنها في يومها .

فحزمها هو مقاومة إغراء بإغراء ، أو تسويق وإرجاء إلى ساعة الشعور بالإغراء .

وربما كانت رحمة المرأة في لبائها - وهى أشهر أخلاقها - مزيجاً من نقص الشعور بالألم ومن التذاذ الشعور به كما رجح بعض الباحثين في فضائل النساء والرجال .

فالمرأة تطيق التمرىض على رأى هؤلاء الباحثين لأنها بليدة الحس كليله الخيال لا تثير فيها رؤية الألم تلك الصور المتلاحقة التي تخلقها

خيلات الرجال ، ولو كانت تفزع للعباد وتشفق منه على المتعذب لما استراحت إلى ملازمته والنظر إليه واستماع أنينه وشكواه ولا تخفى وجهة هذا التعليل الذى ذهب إليه أولئك الفلاسفة ولكنه على غير ذلك قاطع فى تأويله ، لأن صبر المرأة على رؤية العذاب قد يفسر بالاستغراق فى عاطفة الرحمة ، وأن هذا الاستغراق يعين على الاحتمال ويملى للمرأة فى مجارة الآلام ، ولاسيما المرأة التى تنبث فيها عاطفة الأمومة وتحيش فى قلبها فاجعة من فواجعها .

ومع هذا لا يننى استغراق المرأة فى عاطفة الرحمة أنها تلتذ الألم وتجتره وترتضيه ، وأنها كليلة الخيال قلما تتولى الألم بالتصوير والتكبير كما تتولاه خيلات الرجال .

ولانتهى أقوال الكتاب وأصحاب المذاهب الفلسفية والعلمية فى تأويل أسباب التفاوت بين الجنسين ، لأن تعدد التأويلات هنا مسألة مزاج كما هو مسألة فكر ودراسة ، وليس أكثر من تعدد أبناء آدم فى المزاج والدرس والتفكير .

لكن التفاوت قائم وإن اختلفت الأقوال فى تأويله ، وقيامه حقيقة عيانية وحقيقة علمية وحقيقة منطقية فى وقت واحد . إذ كل قول بالتشابه بين الرجل والمرأة أو بالتساوى بينهما هو فى مؤداه قول برجحان المرأة على الرجل وتفوقها عليه لجمعها بين وظائفها ووظائفه فى بنية واحدة ، وذلك هو الرجحان الذى لا يسيغه منطق سليم .

ومامن أحد له مصلحة فى إنكار التفاوت بته بين الجنسين كمصلحة الماركسيين أو الشيوعيين فى إنكاره وإثبات المساواة أو المائلة التامة بين

الذكور والإناث . لأنهم ينظرون إلى المرأة كأنها وحدة اقتصادية يمكن استغلالها إذا بطل استغلال الرجال ، فلا يريدون أن يثبتوا بينها وبين الرجل فرقاً يسمح بهذا الاستغلال في دولة رأس المال .

ولكنهم على هذه الرغبة الملحة عندهم في تقرير المساواة بين الجنسين والإغضاء عن الحقائق التي تنفيها لم يقدروا على الماراة طويلاً في هذه المغالطة الموائمة لمذهبهم وأعلنوا في نشرة الأخبار الحكومية التي أذيعت في أوائل السنة الماضية^(١) أن تجاربهم الطويلة في تعليم الصبيان والبنات قد دلت على فارق واضح بينهم يلاحظ عليهم في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وماحولها . فكانت النتائج تختلف اختلافاً بيناً مع وحدة السن والمجهود ، ويظهر هذا الاختلاف في طاقة العمل عند الصبي والبنات مع تعدد التجارب والبيئات .

ولا يخفى أن عدد الصبيان والبنات الذي يقع تحت الملاحظة الحكومية بمدارس الشيوعيين هو أكبر عدد يتيسر لأصحاب مذاهب التربية في قطر من الأقطار . ففي بلادهم مائة وخمسون مليوناً يذهب أبناؤهم وبناتهم جميعاً إلى المدارس من سنواتهم الباكرة ، وينشأ هؤلاء الأبناء والبنات في بيئات الشمال والجنوب ، وفي مدن الصناعة وقرى الزراعة ، وبين الشعوب الأوربية والآسيوية ، من عناصر شتى .

وقد كان أناس من أساطين علم النفس بين علماء العصر الحديث يقاربون هذه المسألة الجلى - مسألة تعليم الجنسين - بعناية دون العناية التي تنبغي لأمثالها وتنبغي لهم وهم يطرقون المباحث التي تتصل بهتديب

النفوس ومصير الأجيال . ومنهم من فى طبقة «ألفرد أدلر» الذى خطر له أن يناظر «فرويد» فى دراساته النفسية المشهورة ؛ وهى فتح عظيم فى تاريخ المعرفة الإنسانية . فأدلر يقول فى موضوع تعلم الجنسين من كتابه عن فهم الطبيعة الإنسانية «إن أهم المنشآت التى أقيمت لتحسين العلاقات بين الجنسين هى التى أنشئت للتعليم المشترك بينهما» ثم يقول : «إن هذه المنشآت لاتقابل باتفاق الآراء . لأن لها خصوما كما لها أصدقاء» .

ولكنه هو يقطع بالرأى فى ثنايا عرضه لأقوال الأصدقاء والخصوم حيث يقول : «إن أصدقاءها يجعلون أقوى برهان لهم على صلاحها أن الجنسين - خلال التعلم المشترك بينهما - تنفسح لهما الفرص ليفهم كل منهما صاحبه فى السن الباكرة فيقضى هذا التفاهم على الموروثات الوهمية ويمنع عواقبها الضارة جهد المستطاع . أما خصومها فيجيبون عادة بأن الصبيان والبنات يكونون فى سن المدرسة قد بلغوا من الاختلاف حداً يزيد الشعور به والانتباه إليه عند الاختلاط فى معهد واحد . لأن الصبيان يحسون أنهم مرهقون . ويدخلهم هذا الإحساس مما يشاهد على البنات من أنهن أسرع فى النمو الذهنى خلال هذه السن الباكرة . فإذا اضطروا هؤلاء الصبيان إلى المحافظة على ميزتهم وإقامة البرهان على تفوقهم بداهم فجأة لاحالة أن ميزتهم فى الحقيقة إن هى إلا فقاعة صابون مأسهل ماتنفجر وتزول

» ويقول بعض الباحثين غير هؤلاء إن الصبيان فى المعاهد المشتركة يقلقون أمام البنات ويفقدون كرامتهم فى نظر أنفسهم . . . ولاشئ

للك في اشمال هذه الأقوال على نصيب من الصدق والرجاحة ، ولكنها لن تصمد للاختبار إلا إذا نظرنا إلى تعلم الجنسين معاً كأنه ميدان للتنافس بينها على قصب السبق في الملكة والكفاءة . وهى نظرة وبيلة إن كان هذا هو غرض التعلم عند الأساتذة والتلاميذ . ومالم نوفق إلى أساتذة يرون في التعلم المشترك رأياً أفضل من اعتقادهم أنه سبيل إلى التدريب على التنافس أو التنازع المقبل بين الجنسين في المجتمع - فكل محاولة للتعلم المشترك فاشلة إذن لا محالة . ولن يرى خصومه من النتائج المحترمة إلا دليلاً على صوابهم بما أصابه من إخفاق .

ثم يستطرد أدلر فيقول : « وما أخرجنا إلى خيال شاعر لتصوير الحالة كلها في صورتها الصحيحة . فلنقتنع من ثم بالإشارة إلى المواضيع البارزة منها . ومنها أن الفتاة الناشئة تتصرف فعلاً تصرف من يشعر بالضعة ، ويصدق عليها تماماً ماقلناه آنفاً عن الرغبة في التعويض عند ابتلاء الإنسان بذلك الشعور . وإنما الفارق هنا أن شعور الضعة مفروض على الفتاة بحكم بيئتها ، وأنها تساق إلى هذا الاتجاه سوقاً حثيثاً يدعو الباحثين ذوى النظر الثاقب أحياناً إلى تصديق هذه الضعة فيها ، وليس لهذا الوهم من نتيجة إلا النتيجة العامة التى يندفع إليها الجنسان حين يتعجلان خطط التزاحم والتنافس التى تشغل كلا منهما بغير مايعنيه وما يصلح له » .

وقرار المشرفين على تعلم الجنسين بالمدارس الروسية مفيد في استدراك هذه التخريجات والتعليقات التى ذهب إليها أدلر قبل أن نوغل في طريقها إلى تلك النتائج المزعومة .

إذ لا يمكن أن يقال إن فصل الجنسين بالمدارس الروسية ناشئ من شعور الضعة المفروض على الفتاة أو البنت الصغيرة . لأن النساء الروسيات من سن الأربعين فمازلا قد نشأن على عقيدة التساوى بين الجنسين ولم تفرض عليهن البيئة عقيدة غيرها منذ فتن أعينهن إلى الآن . ولو غلا الدعاة الروسيون إلى أحد الطرفين لجاز أن يكون غلوهم في تقرير هذه العقيدة وتوكيدها لافى إحاضها وإضعافها . فليست هناك ضعة مفروضة على الفتاة بحكم بيئتها ولا يوجد هناك من يسوقها إلى هذا الاتجاه سوقاً حثيثاً يوهم الباحثين ذلك الوهم الذى توهمه أدلر من بعيد .

ومع هذا سجل الباحثون الروسيون أن الفرق حاصل بين الجنسين في أدوار التعليم ، وتبين لهم أن الصبى من سن العاشرة إلى الرابعة عشرة يعانى من تجميع القوى في بنيته عناء . يثقل عليه فيبسط نموه بعض الإبطاء ، وعلى خلاف هذا يطرد النمو في البنات بين العاشرة والرابعة عشرة فيزدن في الوزن والطول فضلا عن استعداد الفهم والمعرفة ثم يأتى دور الصبيان بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة فإذا هم الذين يسبقون البنات في الوزن والطول والاستعداد للفهم والمعرفة . فلا يأتى - وهذه هى الفوارق بين الجنسين من العاشرة إلى السابعة عشرة - أن يتلقوا معاً دروساً واحدة ويجارى بعضهم بعضاً في مضمار واحد .

ثم يأتى دور آخر وهو دور التفكير في الفوارق بين عمل الرجل وعمل المرأة في الحياة . إذ ليس من المستطاع أن يناط بهما عمل واحد يؤديانه على نحو واحد من القابلية والكفاءة .

فالرجال يعدّون للجنديّة ويدربون على فنونٍ من الدربة الرّياضيّة العسكريّة وهم فتيان صغار . ولا يقال إنّ النساء أيضاً يعلمن للدّفاع عن أوّطانهن في الجيوش . فإنّ الواقع أنّ الوظائف موزعة بين الرجال والنساء حتّى في ميادين القتال . فلا تناط بالنساء إلا الأعمال التي تؤمّنهن كأعمال التّكوين والمواصلات والتّريض وما يشاكلها ممّا يباشرنه وراء خطوط النار .

وكذلك لاتناط بهن في تحضير الذخيرة والأسلحة إلا الأعمال التي يطقنها دون الأعمال الكبرى التي لا يصلحن لها ولاتناط بغير الرجال وكما ينبغي أن يعد الرجال للجنديّة ينبغي أن يعد النساء للأمومة وما يتصل بها من فنون الرّية والتّنشئة والعناية بالصّحة والغذاء . ومهما يكن من التسوية بين الأباء والأمهات في تبة الأبوة والأمومة فلن تلغى هذه التسوية كل فارق بين الأب والأم في النشأة والاستعداد

ولقد جرب فصل الجنسين بضعة أشهر فظهر أثر هذه التجربة في زيادة التّجانس والتّوازن بين صفوف المتعلّمين والمتعلّلات . وأمّكن أن يستفيد الصّبيان والبنات خير فائدة من كل فترة يشاهون فيها ولا يتفاوتون .

ولم يزل أساتذة الرّية هناك حريصين على مذهبهم المعهود من التسوية بين الجنسين وهما مفترقان . فقال « سولوخين » مدير إحدى المدارس بموسكو إنّ هذه التّفرة لاتفيد التّفضيل والتّمييز « لأنّ البنات والصّبيان في مدارسنا يتلقون وسيتلقون طبقة واحدة من التّدريب والتّعليم ، ويؤهّبون أهبة متساوية لنصبيها من عمل الحياة ، وينشأون على عقيدة التّكافؤ بين الجنسين » .

ونقول نحن إن عقيدة التكافؤ لا تهم في هذا الموضوع مابق الفارق بين الرجل والمرأة في البنية والوظيفة محسوباً له حساباً الصميم في مراحل التعلم من الطفولة إلى الشباب .

فليست المسألة التي نحن بصدد حلها مسألة تقدير المنازل والمراتب في ديوان من دواوين التشريعات . ولكنها هي مسألة القيام بأعمال الرجال وأعمال النساء على الوجه الصالح لكل من الجنسين .

وقد يفرط القائلون بالتساوى كما يفرط القائلون بالتفاوت ذلك الإفراط الذى يلامس الفكاهة والمزاح وإن لم يقصد به قائلوه شيئاً من فكاهة أو مزاح .

فهذا الإلحاح على مسألة التساوى لا يقلل في سخفه وهزله عن ذلك الرأى الذى ذهب إليه عالم من علماء الطبيعة وهو لا يمزج ولا يهزل . . . ولكنه يقول جاداً إن اتساع الهوة بين إدراك الرجل والمرأة يرجع لديه أنها أنثى حيوان آخر لجأ الإنسان إلى اغتصابها في غابر العصور على أثر آفة جائحة أملت بالإناث الإنسانية فانقرضت وهى فى بقعة محدودة من الأرض ، قبل انتشار الآدميين على وجه العالم المعمور . فذلك أقرب التعليلات عنده لهذا التفاوت البعيد بين أسلوب الرجال وأسلوب النساء فى الفهم والتصور . فضلاً عن القوة العاقلة والبداهة الذهنية ! !

وفى تخيل هذا العالم غلو يلامس الفكاهة كما أسلفنا . . . إلا أننا لانعدو حدود المقررات الفكرية ولا نلامس الفكاهة حين نقول إن الأنثى الإنسانية ليست هى المقصودة باستقلال الحلقة والتكوين . وإن الغرائز

الجنسية تلقى في روعنا أن الرجل هو المقصود باستقلال الحلقة من طريق هذه الغرائز. كما استدللنا على ذلك في بعض فصول كتابنا المطالعات فقلنا : « إن المرأة تعشق الرجل لتأني برجل على مثاله أى لتكرره وتعيد خلقه . ولكن الرجل لا يعشق المرأة ليأني بامرأة على مثالها ويكررها وإنما يعشقها ليكرر نفسه ويأني بولد له على مثاله هو من طريق المرأة التي تصلح لذلك في نظره وهواه . والمرأة تعشق لتسلم نفسها في نهاية الأمر فدورها في العشق هو دور التسليم دائماً ... أما الرجل فيعشق ليظفر بالمرأة فدوره في العشق هو دور الظافر دائماً . وليس في مضامين الغرائز الجنسية - وهي أصدق مقياس لما يتناوله الاختلاف من وظائف الجنسين - وما يؤخذ منه أن المرأة أعظم من الرجل شأناً أو أنها مقدمة عليه في مقصد من مقاصد الطبيعة .. »

تناقض المرأة

كتب تولستوى الأديب الروسى الكبير فى يومياته بتاريخ الثالث من شهر أغسطس سنة ١٨٩٨ : « ان المرأة لأداة الشيطان . إنها غبية فى جملة حالاتها . ولكن الشيطان يعيرها دماغه حين تعمل فى طاعته . انظر إليها فهى تأتى بالمعجزات من التدبير والنظر البعيد والمثابرة لتفصى من ثم إلى عمل خبيث . ولكنك تنظر إليها حين يُطلب منها عمل غير خبيث فإذا هى عاجزة عن فهم أصغر الأمور لانتظر إلى ماوراء لحظتها الحاضرة ولا ترى لها من عزيمة ولا جلد » .

• • •

والذى قاله تولستوى عن تناقض المرأة فى التدبير يقال كثيراً عن تناقضها فى الفهم والشعور : تخلص ثم تخون . وتشتد فى الحب ثم تشتد فى الكراهية . وتقول لا وهى تعنى نعم وتقول نعم وهى لاتعنى ماتقول . وتصبر على التضحية بالراحة والعافية ولا تصبر على خسارة دربهات . ولا تزال تنتظر منها شيئاً وتفجأك بغير ماتنتظر . وتحسب عندها حساباً وتلقاك بمالم يكن لك فى حساب .

وبعض هذا التناقض فى طبيعة الناس من الإناث كانوا أم من الذكور . وفى الشئون الجنسية يعرض لنا أم فى غير هذه الشئون . لكن التناقض - بعد هذا - خلة لامناص منها فى تكوين المرأة خاصة . لأنها خلة ملازمة للأُنوثة فى الأزم لوازمها . وهما الأمومة والحب بشئى معانيه .

فالدلة والألم نقيضان في الكائن الحى على الاجال . ولكنها يمشیان
معاً فى إحساس المرأة فتجتمع بينهما اضطرابا من حيث تريد ومن حيث
لا تريد :

أسعد ساعات المرأة هى الساعة التى تتحقق فيها أنوثتها الخالدة
وأمومتها المشتهة . وتلك ساعة الولادة .

فى تلك الساعة يغمرها فرح لا يوصف إذ هى تنجب ذلك المخلوق
الحى الذى صبرت على حمله حتى أسلمته إلى الدنيا راضية مرضية .
ولكنها مع هذا هى أشد ساعات الآلام والأوجاع فى جسد الأم الطريح
بين الموت والحياة .

فالنقيضان فى إحساسها يتلاقيان ويتجاوران . ويمتزجان أحيانا
فلا ينفصلان . ومن هنا تراها فى غبطة وهى تعاني الألم وتراها فى ألم
وهى تختلج بالسرور

وأسعد ساعات المرأة كرة أخرى هى ساعة التسليم والخضوع للرجل
الذى يستحق عندها مذلة التسليم والخضوع .

لامناص عندها من السعادة فى تلك الساعة وهى راغمة . لأن
أمنيتها القصوى هى أن تظفر بالقرين الذى تستكين إلى بأسه وتشعر
بغلبته . ولا مساعدة لها مع الرجل الضعيف لأنه أب غير صالح وزوج غير
نافع ورجل غير موفور الرجولة . فإذا شعرت بقصرارى رجولته شعرت
بقصرارى غلبته فى وقت واحد .

والشعور بالخضوع مؤلم مذل للكائن الحى على الإجمال . ولكنها هى

الكائن الحى الذى يحقق لها الخضوع غرض الأنوثة الأقوى . ولا غرض
للأنوثة أقوى من الظفر بالغلابين من الرجال .

فهى فى ألفتها راضية وفى خضوعها ظافرة . وهى على الرغم منها
تجمع بين النقيضين : الظفر والمزمنة . والنجاح والتسليم .

هى أبداً بين نقيضين فى أمومتها وفى حبها . وذلك هو التناقض الذى
لا حيلة لها فيه . ولا يفجأ الرجال منها إلا كما يفجأها هى على غير
ما تنتظر . وعلى غير ما يقع لها فى تدبير .

فمن الخطأ أن يرد على الخاطر أن التناقض من دهاء المرأة وتدبيرها .
أو من ختلها وخداعها . فهى مخدوعة به قبل أن تخدع سواها . وهى فى
قبضته فريسة لا تملك ما تريد .

ولابد من التناقض فى طبع الأنثى لأنها شخصية حية خاضعة
للمؤثرات التى تتناوبها من عدة جهات . وهى كما أسلفنا فى الفصل
السابق مستجيبة للأثر الحاضر . وقد تبدى آثار الحاضرة من كل صوب
لا من صوب واحد .

فالمرأة من جهة ثانية عضوفى بيئة اجتماعية هى الأمة أو المدينة أو
القبيلة ، فهى هنا زوجة أو بنت أو أخت أو صاحبة عمل تجمعها بتلك
البيئة الاجتماعية صلة العرف أو الشريعة .

والمرأة من جهة غير هذه وتلك أنثى لها تركيب حيوى يربطها بمخلوق
آخر لا يتم وجودها بغيره .

والمرأة من جهة أخرى أم تحب أبناءها بالغريزة والألفة وتصابى
سبلهم على مشقات وآلام يؤدها الصبر عليها فى غير هذه السبل

وهى بعد هذا كله كائن حى من حيث هى وليدة الحياة فى جملتها
أيا كان النوع الذى تنتمى إليه، والأمة التى تعيش بينها والعلاقة التى تجمعها
بالزوج أو العاشق أو الأهل أو البنين .

وقد تختلف عليها هذه الوجهات جميعاً فلا مفر لها من التناقض
معها . لأن مقاصد الفرد المستقبل والأنثى المفتونة والأم التى تنسى
نفسها فى حنانها ، والكائن الاجتماعى الذى يرفع مطالب العرف
والشريعة ، أو الكائن الحى الذى تهزه الحياة بهذه النوازع كما تهزه بما
عدها - كل أولئك يختلف ويتناقض لاهمالة ، ولا يتأتى التوفيق بينه
إلا فى الندرة العارضة .

فها هنا مثلاً فرد يريد بفطرته الفردية أن يستقل عن جميع الأفراد
الآخرين سواء كانوا من الآباء أو الأمهات أو الأزواج ، فلا يلبث أن
يستقر فيه هذا الشعور الطبيعى حتى ينازعه فيه شعور الأنثى التى تريد أن
تنصوى إلى رجل تهواه ، وقد ينازعها شعوران بل أكثر من شعورين إذا
تعددت الصفات التى تسهرها من الرجال وتفرقت بينهم على نحو يضلل
الإرادة ويشتت الأهواء .

ولا تلبث أن تنسى استقلالها الفردى وتطاول نزعها الأنثوية حتى يبرز
لها المجتمع بحكم يخالف حكمها فى الاختيار والترجيح ، فيقودها إلى الجاه
والمال وهى تنقاد إلى الفتوة والجمال ، أو يلزمها الوفاء للزوج وهى تنظر
إلى رجل آخر نظرة الأنثى التى سبقت بفطرتها قوانين الأمم وقواعد
الآداب .

ولا تلبث أن تحتال على هذه البواعث أو هذه الوسوس حتى يغلبها

حنو الأمومة ليربطها بمكان لاتود البقاء فيه . أو ينهض الكائن الحى فى نفسها نهضة لاتطيع باعثاً غير بواعث الحياة . بمعزل عن نزوة الأنثى وقانون المجتمع وغرائز الأمهات .

فلا عجب فى هذا التناقض ولامباينة فيه للمعقول . ثم يضاف إليه تناقض آخر يرجع إلى تعدد الدواعى فى كل صفة من الصفات التى أشرنا إليها .

ونكتفى بصفة واحدة على سبيل التمثيل . لأن شرح الصفات جميعها فى تعددها وتباينها من وراء الحصر والإحصاء .

فالمرأة فى صفة الأنوثة - وهى تنضوى إلى الذكورة - تحب الرجل الكريم لأنه يغمرها بالنعمة ويريحها من شدائد العيش ويخلصها بالزينة التى تزيها وترضى كبرياءها بين نظيراتها . فضلا عما فى الكرم من معنى العظمة والاعتدار .

ولكنك قد ترى هذه المرأة بعينها تتعلق ببخيل لاينفق ماله على زينة أو متاع . فهل هى مناقضة لطبيعتها فى هذا الانحراف العجيب ؟

كلا . بل هى لاتناقض طبيعة الكبرياء نفسها التى ترضيها عن كرم الكريم .

لأن المرأة يجرح كبرياءها أن ترى رجلا يستكثر المال فى سبيل مرضاتها ، ومتى جرحت المرأة فى كبريائها أقبلت باهتمامها وحيلتها وغوايتها من حيث أصابها ذلك الجرح المثير . وليس أقرب من تحول الاهتمام إلى التعلق فى طبائع النساء .

فالتزعة الواحدة قد تكون سبيلا إلى النقيضين في ظاهر الأعمال ولكنها نقيضان لايلبثان أن يتفقا ويتوحدا عند المنبع الأصيل ، متى عرفنا كيف تنتهى الردة إليه .

وكما ذكرنا نقائص المرأة وجب ألا ننسى مصدراً آخر للتناقض في أخلاق النساء يفسر لنا كثيراً من نقائصهن حينما توقعنا شيئاً من المرأة وأسفرت التجربة عن سواه .

ذلك المصدر هو درجات الأنوثة وأطوارها بين الظهور والضمور . . .

فللأنوثة صفات كثيرة لايجتمع في كل امرأة ولايتوزع على نحو واحد في جميع النساء .

فليست كل امرأة أنثى من فرع رأسها إلى أخمص قدمها ، أو أنثى مائة في المائة كما يقول الأوربيون . بل ربما كانت فيها نوازع الأنوثة ونوازع غيرها إلى الذكورة ، وربما كانت انوثتها رهناً بقوة الرجل الذى يظهرها فلا تشابه مع جميع الرجال . وربما كانت في بعض عوارضها الشهرية وماشابهها من عوارض الحمل والولادة أقرب إلى الأنوثة الغالبة أو أقرب إلى الذكورة الغالبة . وقد كانوا فيما مضى يحسبون هذا التراوح بين الذكورة والأنوثة ضرباً من كلام المجاز ، فأصبح اليوم حقيقة علمية من حقائق الخلايا وفصلا مدروساً من فصول علم الأجنة ووظائف الأعضاء .

وليس التناقض لهذا السبب مقصوراً على النساء دون الرجال . . .

فإن الرجل أيضاً يصدق عليه ما يصدق على المرأة من تفاوت درجات الرجولة ، إذ ليس كل رجل ذكراً من فرع رأسه إلى أخمص قدمه . أو ذكراً مائة في المائة كما يقال في اصطلاح الأوربيين . ولكن التناقض لهذا السبب يبدو في المرأة أغرب وأكثر لامتزاجه بأسباب التناقض الأخرى ومحاولة الرجل أن يفهمها على استقامة المنطق كدأبه في تفهم جميع الأمور .

ولاريب أن « الشخصية الإنسانية » في حالى الذكورة والأنوثة عرضة لكثير من النقائص المحيرة للعقول : عقول الرجال وعقول النساء .

وكم يقول النساء عن تناقض الرجال ولا يخطئ المقال ؟ كم يقلن إن الرجل « كالبحر المالح » لا يعرف له صفاء من هياج ؟ وكم يقلن إن فلانا كشهز أمشير لا تدرى متى تهب فيه الأعاصير ؟ وكم تقول إحداهن للآخرى حببيك في ليلك عقرب في ذيلك ؟ وكم لهن من أمثال هذه الأمثال مما لا يحفل به الرجال ؟

إنهن لا يعنين بمقاربة الرجل من طريق الفهم كما يعنين بمقارنته من طريق التأثير ، ولو حاولن فهمه كما يحاولن التأثير فيه لخرجن به لغزاً من الألغاز وأعجوبة من أعاجيب البحار في قديم الأسفار .

« فالشخصية » كلمة واحدة في اللغة ولكننا نخطئ أبعد الخطأ إذا تصورناها شيئاً لأنها تنطوى تحت عنوان واحد . إذ هي أشياء لانتصى من الغرائز والمدارك والأحاسيس وعلاقات المجاورة بينها وبين العالم الذى تعيش فيه ، وهى بهذا الخليط الواسع في حركة دائمة لا تستقر على وجهة

واحدة برهة من الزمن . ولا تعهدا في الصحة ولا في الشباب كما
تعهدا في المرض أو في الهرم ، ولا تصدر فيها التزعة الواحدة من مصدر
واحد في جميع الأوقات والأحوال . . .

فهى تختلف بين حالة وحالة . وتختلف بين سن وسن ، وتختلف على
حسب العلاقة بينها وبين هذا الانسان وذاك الانسان . . . وتختلف على
حسب العلل والبواعث التى تحركها إلى الأعمال . .

والمرأة كالرجل « شخصية إنسانية » تتعرض للتناقض من جراء هذا
التعدد وهذا التقلب في عناصر كل « شخصية » تحمل عنواناً واحداً
وتشتمل على شتى العناصر التى لا يقر لها قرار .

ولكنها انفردت بأسبابها المقصورة عليها ، وانفردت بمراقبة الرجل
إياها ومحاولة التوفيق بين غرائبها وبدواتها .

وعندها في صميم هذه الأسباب المقصورة عليها حالتان تضاعفتان
ظهور التناقض فلا يخفى كما يخفى تناقض الرجل على النظرة الأولى .
إحدى هاتين الحالتين طبيعة المراوغة التى وصفن بها إذ « يتمنعن
وهن الراغبات » .

والأخرى طبيعة الاستغراق فى الساعة التى هى فيها ونسيان ما قبلها
وما بعدها ، فيبلغ العجب أشده بمن يراقبها أن يراها تنتقل بين أطوارها
كما ينتقل الممثل بين أدواره ولا يخلط بينها أو لا يستبقى من سوابقها بقية في
تواليها .

فمن المشاهد أن الرجل إذا قضى يوماً أو أسبوعاً في مناداة اسم من

الأسماء - ولاسيا نداء المفاجأة - اخطأ فسبق به لسانه في جلسة أخرى
لايود أن يذكره فيها ، بل لعله يود أن يكتبه ولايومىء إليه .

وقلما يشاهد هذا في محادثات المرأة ولو تلاحقت بين ساعة وساعة ،
لأن الساعة التى هى فيها تستولى عليها فلا يزل لسانها بالأشارة إلى غيرها ،
ولأنها تستعين هنا بطبيعتين أصيلتين فيها ، وهما طبيعة النفاق وطبيعة
الاستغراق .

ولم يزل التناقض باباً من أبواب الحيرة واختلال الحساب ، ولكن
التناقض الذى يفهم سببه يريح من الحيرة على الأقل عند البحث عنه
والتفكير فيه ، وإن لم تكن به راحة من معاناة التناقض وابتلاء متاعها ،
ولا عتب في معظمها على المرأة لأنها لاتقصدها كلما لجأت إليها ، وقد
تكون هى ضحية من ضحاياها .

حب المرأة.

يجتمع في حب المرأة كل ما تفرق من نقائصها وأسرار خلقها لأن الحب هو محور الوظائف الجنسية التي خلقت فيها نقائصها وأسرارها . فهي لا تتناقض في خالجة من الخوالج كما تتناقض في هذه الخالجة الكبرى ، ولا تستوفى أنوثتها في نزعة من النزعات كما تستوفيها وهي تستقبل بها رجولة الرجل الذي تهواه .

ومما يضاعف نقائص الحب أن المرأة في الحب نماذج كثيرة على حسب الطبيعة الغالبة عليها من طبائع الأنوثة .

فليس حب المرأة المشغولة بالأمومة كحب المرأة المشغولة بالزوجية ، وحب المرأة المشغولة بالعشق وعلاقاته ، أو المرأة المشغولة بالمتعة الحيوانية أو المشغولة باللعب والعبث والتصدئ لكل من تلقاه من الرجال .

ولا نهاية للشواغل التي تختلف بها أهواء النساء ولا أهواء المرأة الواحدة ، ولكننا نردها إلى نماذجها العامة فتخلص لنا منها تلك النماذج الخمسة التي أجمعنا الإشارة إليها فيما تقدم . وهي : نموذج المرأة الأم ، ونموذج المرأة الزوج ، ونموذج المرأة العاشقة ، ونموذج المرأة المملوك ، ونموذج المرأة اللعوب .

وكل نموذج من هذه النماذج يخالف الآخر في حبه واختياره للرجل الذي يواجمه ؛ وفي علاقته بمن يختار .

فالمرأة الأم تصدر في حبها عن بواعث الحنان والتضحية ، وقد تعطف على الرجل لمتابعه وآلامه فتحبه وتهواه إذ يهين لها منفذاً لعاطفة الأمومة الغالبة عليها . فترعاه في معيشتها معه رعاية الأم لوليدها ، وتصبر معه على الضنك والحرمان ، لأنها مطبوعة على التضحية وإنكار النفس في سبيل الذرية ، ومتى طبعت المرأة على إنكار النفس في هذا السبيل فهي تنكر نفسها كلما أحبت واستجاش الحب في طواياها بواعث العطف والرعاية .

والمرأة الزوج يستهويها الرجل من ناحية المعيشة المتزلية والمظاهر الاجتماعية وعلاقات الأهل والاسرة وألفة المزاوجة التي تستغرق طبائع بعض الآدميين ، كما نشاهدها مستقرة في بعض الطيور أو بعض الفقاريات التي تألف المزاوجة مدى الحياة .

والمرأة العاشقة تحب الرجل الذي يثير حسنها ويشغل كوامن نفسها ويملك إعجابها ، وتختلف النساء العاشقات فيما يثير الحس ويشغل كوامن النفس ويملك الإعجاب ، فمنهن من يستهويها الرجل بشبابه وجماله وسمته ، ومنهن غير أولئك ألوان وأشكال يختلفن في عشقهن كاختلاف الرجال في المحاسن والمزايا أو الخصال .

والمرأة المهلوك تحب الرجل للشهوة الحيوانية ولا يعينها الرجال إلا من هذه الناحية دون غيرها ، ويخلو هذا الحب من الوفاء والاخلاص والشفقة والمودة والمعاني الأدبية التي توجد بين المحبين لأنه يشبه الشغف بالطعام والشراب لاصلة فيها بين الأكل والمأكل أو الشارب والمشروب غير صلة الشبع والجوع وصلة الرى والظما . ولا تحفل المرأة التي تحب هذا

الحب بشخص الرجل ولاتنقع بواحد إذا استطاعت أن تستكثر من العشاء . ولكنها قد تشاهد على حالة من التعلق برجل واحد تلتبس بحالة الوفاء والإخلاص وهي ليست من الوفاء والإخلاص في شيء ، وإنما سببها الاختلاف بين الرجل والمرأة في طلب الجنس الآخر واحتجازه .

فالرجل ترضى شهوته كل امرأة اتصلت بينه وبينها صلة جنسية ، ولايعيه أن يطلب المرأة ولا المرأة تعافه لأنه يطلبها . ويندر من الرجال من يقبل علانية أن تحتجزه امرأة لشهواتها وتتكفل بالنفقة عليه .

ولكن المرأة على نقيض ذلك لا يرضى شهوتها كل رجل تتصل بينها وبينه صلة جنسية ، ويعيها جداً أن تسعى كل حين في طلب رجل جديد ، ولايعيها أن يحتجزها الرجل وينفق عليها كما يعيه هو أن تحتجزه وتنفق عليه .

فاذا عثرت المرأة الهلوك بالرجل الذى يرضى شهوتها ويقبل احتجازها وتلبية هواها فهي تتعلق به وتقتصر عليه لأنها تطلبه لاتتكرر بمشيئها ، ولو كانت تتكرر بمشيئها لما فرغت من تغيير الرجال وتبديلهم كل يوم . ولهذا قد تكون المرأة الشهوانية أديم النساء على رجل واحد مع أنها لاتعرف الوفاء والمودة والحنان ، وذاك الذى يلوح للنظرة الأولى كأنه تناقض عجيب من خلق النساء ، وإنما عتبه ماقدمناه .

أما المرأة اللعوب فهي تحب الرجل الذى يرضى فيها طبيعة اللعب والدعابة والغزل الصاحب المتجدد . وقد تحب الدعابة للدعابة لالأنها طريق الشهوة أو الصلات الجنسية والعلاقات الزوجية .

وأدعى ما يكون من 'دواعى الحيرة فى تناقض النساء فى حين أن غلبة نموذج من هذه النماذج على طبيعتهم لا يمحو منها النماذج الأخرى . . .
 فالمرأة اللعوب قد يراجعها عطف الأمومة فى بعض أطوارها والمرأة الأم قد تطرب للدعابة والعبث وتتخذ بها ، والمرأة الهلوك قد تضممر العشق حيناً من أحيانها ، والمرأة العاشقة قد تركز إلى الزواج الدائم ، والمرأة الزوج قد تعشق زوجها طويلاً كما يتعاشق المحبان المغرمان .
 لأن غلبة عنصر من عناصر الطباع لا يبحث العناصر الأخرى سواء فى نفوس النساء أو نفوس الرجال .

والحب كما لا يخفى علاقة بين شخصيتين لابين جنسين .

وتفسير ذلك أن العلاقة التى تكون بين كل ذكر وبين كل أنثى هى وظيفة جسدية وليست علاقة نفسية أو روحية كالعلاقة التى تكون بين المحبين . . .

وإنما تسمى العلاقة بين الذكر والأنثى حباً إذا تميزت فيها شخصية من جنس الرجال وشخصية من جنس النساء ، فلا يغنى عن كل منها بديل من جنسه ، إلا إذا وهنت العلاقة التى بينها .

والسنة العامة فى الحب هى التوحيد والاكتفاء بمحجوب واحد فى حينه ، ولكنه قد يجرى على غير هذه السنة فى بعض أحواله الغريبة ، فتحب المرأة غير رجل وقد تحب عدة رجال . لأن « شخصية » الرجل الواحد لا تنحصر فيها جميع المزايا التى تستهوى النساء من الرجال ، وقد تبرز مزية واحدة كل البروز فلا ينع المرأة أن تغفل عنها ، وتضممر فيها المزايا الأخرى فلا تصير المرأة عن نشدانها فى « شخصية » أخرى .

وقد تشعر المرأة بالحاجة إلى حب رجلين اثنين متناقضين : أحدهما تكبره وتكبر نفسها إذا عملت أنها كبيرة في نظره ، والآخر تصغره ولا تبالي أن تكشف له صغائرها وتطلعه على مذللتها ، وتستريح إلى محادثته لأنه من الجنس الآخر ولا تشعر بمثل هذه الراحة إلى محادثته صديقة من جنسها . والمزايا التي تستهوى النساء من الرجال لا تحصى في تعدد أنواعها .

ودرجاتها ، فمنها القوة والجمال والشهوة واللباقة والظرف وعلو المكان وبسطة الجاه ، ومنها ما يرضى غرورها وما يرضى جسدها وما يرضى ذوقها وما يرضى فؤادها . وكلها تتطلب الارضاء ولا تتلاقى في « شخصية » واحدة ، فلا يندر من أجل هذا أن تتعلق المرأة بأكثر من رجل واحد تعلقاً صحيحاً لاريا فيه ، وتعسا على ذلك سليفة الاستغراق التي تهون عليها الانتقال من حال إلى حال في حضرة كل محبوب ؟ فلا ينكشف سرها إلا باتباعه شديد . لأن المرأة قد تنكشف حين تبغض وتداهن من تبغضه ، ولكنها لا تنكشف حين تحب وتظهر المحبة وإن أضمرت غيرها في اللحظة بعينها ، وهذه هي العقدة التي يحسبها بعضهم لقزاً كاللغز الذي يصادقه العلماء النفسانيون في أصحاب « الشخصية » المتعددة ، وليست هي باللغز على هذا الاعتبار . . . لأن الشخصية المتعددة غير الشخصية الفذة التي تمر بحالة بعد حالة وتستغرق في كل منها فترة تقصر أو تطول .

وفي حب المرأة مجال للتناقض - غير ماتقدم - يرجع إلى تفاوت درجات الأنوثة الذي سبقت الإشارة إليه .

فإن التعبيرات المجازية التي تقارب الحقيقة العلمية كل المقاربة إن

المرأة والرجل لا يكمل الوفاق بينهما إلا إذا كان فيها معا ذكر كامل وأنثى كاملة ، أو مائة في المائة من الذكورة ومائة في المائة من الأنوثة كما يقال في الاصطلاح الأوربي . الحديث .

ولكن المرأة التي تكمل فيها مائة في المائة من الأنوثة غير موجودة ، والرجل الذي تكمل فيه مائة في المائة من الرجولة غير موجود .

فالمرأة التي تغلب عليها الأنوثة يصلح لها قرين تغلب عليه الرجولة : فإذا انحرفت المرأة نحو طباع الرجال فأصلح القرناء لها رجل منحرف نحو طباع النساء .

وقد تسيطر المرأة على رجل وتخضع لرجل غيره ، تبعاً لاختلاف نصيبهما من الفحولة وصعوبة المراس .

وهذا التفاوت في درجات الأنوثة هو سبب الانحراف في علاقات الجنس بين بعض النساء المعروفات « بالسافيات » نسبة إلى الشاعرة اليونانية سافوا التي تغزلت في بعض أناشيدها بالفتيات .

كأنما تفقد المرأة سرورها بمصاحبة الرجال فهي تلتبس بهذا السرور بمصاحبة بنات جنسها الذي خرجت منه بالمزاج وان بقيت فيه بتركيب الأعضاء .

ومن المقارنات التي تتكرر في كل جيل تلك المقارنة الخالدة بين الرجال والنساء في الحب أيهما أقوى فيه وأيها أوفى وأيها أقرب إلى الروحانية والقداسة :

بعض الأقدمين زعموا ان المرأة أقوى شهوة من الرجل وزعموا أنهم

قاسوا هذا الفارق بمقياس الحساب فوجدوا أن نصيب النساء تسعة وتسعون والواحد الباقي من نصيب الرجال .

وبعض المحدثين زعموا أن الحب أهم للمرأة من الرجل ، لأن شواغل الرجل قد تلهمه عن الاستغراق فيه .

ولابد من فارق في الحب بين الجنسين على كل حال .

لأن هدف المرأة من الحب هو الرجل وهدف الرجل من الحب هو المرأة ، وهما مختلفان في الصفة والغاية والوسيلة .

لابد من فارق بين الحب المعبر والحب الكتوم . فالحب المعبر - وهو حب الرجل - يتسامى بتعبيره أحياناً إلى خلق الجمال في الفنون كما يصنع المغرم الذي ينشد القصيدة أو يبدع التماثيل أو ينطلق بالغناء . . .

والحب الكتوم - وهو حب المرأة - قد يتوارى عن الأنظار ويتغلغل في الأسرار ويعمد إلى الرقى والتعاويد وإلى السحر الأسود يستميل به من لا يميل ومن لا يرفع المرأة في نظره أنه يستمال عنوة وجهرة كما يفعل الرجل حين يستعمل من يهواها من النساء .

فالفن الجميل شفيح حب الرجل ؛ والسحر الأسود شفيح المرأة ؛ لأن هذا مجذوب إلى الخفاء وذاك مجذوب إلى الضياء ؛ وإن وجد كلاهما أصلاً لغرض غير هذين الغرضين .

وإن الفجوة بعيدة بين الوجهتين .

وشتان بين الحب الناطق الذي يكرمه أن يطلب ويعبر ؛ وبين الحب الصامت الذي يكرمه أن يصمت ويتنظر . . . فهي ولا ريب جنسان متباينان كما يتباين الجنسان المحبان .

كذلك لا يشابه الحبان هذا خلق في طبيعة تنقاد للمؤثرات ولا تبالى ماوراءها ولا تزال في حاجة إليها وهى معشوقة وزوج وأم ذات بنين ؛ وهذا خلق في طبيعة تملئ تلك المؤثرات وتتسلط بها على الطبيعة المقابلة لها ، وهى مدعوة إلى التسلط عليها .

فأحد الحبين ينبع من الإحساس ، والآخر ينبع من العزيمة النافذة والعارضة القوية ، وإن جاز أن يصطبغ كلاهما بغير صبغته كلما جاوز المنبع وجرى مطرداً أو غير مطرد في مجراه .

ولا يشابه كذلك حب يقترن بحب المجد والكفاح ونتاج الفكر والإلهام ، وحب تفرغ له النفس أو تكاد ، ولا تطلب المفاخر معه إلا من طريقه أو من جوار ذلك الطريق .

والحب يعد من جانب المرأة طلب حماية وتسليم ، ومن جانب الرجل طلب هجوم وظفر . فلولا أنهما يدوران على محور واحد لقليل إنهما متناقضان .

والحب كما قيل عند المرأة شغل شاغل وصناعة دائمة ، وعند الرجل رياضة فراغ وسكن من جهاد .

فهو يستولى على المرأة كلها ولا يستولى من الرجل إلا على الجانب الذى يتوق إلى الرياضة وابتغاء الراحة ، ومن الرياضة رياضة القريحة ورياضة الروح .

فأيها إذن أحرى أن يدوم ؟

ظاهر الأمر أن الحب الذى يستولى على النفس كلها هو أحرى

بالدوام ، وحقيقة الأمر أن الحب الذى يبلغ هذا المبلغ هو أقرب الحبين إلى الخطر وأدناه إلى التبدل ، لأن النفس الانسانية لاتدوم طويلا على حالة الاستغراق أو الشيع والامتلاء ، وقد يُضمن الدوام للحب الذى يستريح من جانب إلى جانب ولا يكلف الطبع جهداً عظيماً في مولاته بالمدد والتجديد ، ولكنه لضمان للحب الذى يحتاج أبداً إلى مدد يكفل له كل استغراق وامتلاء ، ولا يصبر على فراغ بعضه إلا نزع إلى حالة أخرى من حالات الاستغراق والامتلاء .

* * *

وتعريف الحب - ولو فيها نراه نحن - قد يعين على فصل هذين الحبين ولمس مواقع الالتباس بينهما ، إذا وقع هذا الالتباس فالحب - ولو فيها نراه نحن هو - اتصال شخصيتين - لا مجرد ذكر وأنثى - تغلب فيه العادة على الإرادة ، وقد يتفق لأكثر من شخصيتين اثنتين مع اختلاف الباعث والغرض والقوة .

وهنا تلعب العوارض النفسية لعبها الذى يخلط بين الشكول حتى ليوشك أن يخلط بين الأصول .

فالرجل أقوى إرادة من المرأة ولكنه لا يشعر بالعب وهو يريد المرأة ويلاحقها ويحرص على احتجانها واستبقائها ، ما لم يكن في ذلك مساس بالنخوة والمروءة ، فريد أحياناً وهو يبدو للوهلة الأولى كأنه مقسور . والمرأة أضعف إرادة من الرجل ولكنها تشعر بالعب من ملاحظته واحتجانه ، فتصد عنه وتعتصم في صدها بحظ المرأة من الإرادة ، وهو العناد أو الإرادة السلبية : إرادة الامتناع .

وهذا الذى يبدو منه لأول وهلة أن المرأة فى الحب أقوى إرادة من الرجل .

وقد قالت إحدى ذكيات المعلمات فى معرض الموازنة بين ذكاء الجنسين أن النساء أذكى من الرجال ، لأنهم يريدون معاً سروراً واحداً والرجل هو الذى يؤدى ثمنه ويسعى إليه .

وذلك هو التباس الشكول الذى يسرى إلى الأصول .
فإن المسألة هنا ليست مسألة الإرادة وإنما هى مسألة الشعور بالعيب بين الجنسين ، ولا يعيب الذكور ما يعيب الاناث .

نعم ولا يعيب الكفيل أن يسعى فى رعاية المكفول ، بل يبلع من ذلك أن الطفل الصغير يقسرننا على رشوته ومصانعته ليقبل على نجرع الدواء ، وهو أحوج إلى معاطاته وفى خطر من الاعراض عنه .

* * *

وكل ماتقدم فهو حديث عن الرجل الذى أحب والمرأة التى أحبت ، وليس بحديث عن كل رجل وكل امرأة من الجنسين .
فليس لأحد أن ينظر إلى الرجال عامة والنساء عامة ثم يسأل أين هى نوازع الرجال الذين تعنونهم ؟ وأين هى نوازع النساء اللاتي تعنونهن ؟
فان من يسأل هذا السؤال كمن يلتمس الماء فى غير مورد ، وأخلق بالباحث عن عوارض النفوس ان يبحث عنها فى أطوار التعرض لها والاصابة بها كما يبحث عن عوارض الابدان .

فهى تعرف حيث توجد ، ولا تعرف حيث تنعدم أو تكمن فى الانتظار ، وكم من الرجال والنساء يقضون العمر ولا يعيشون ، ويلبسون الحياة فى ذيل ثوب الحياة ؟ !

أخلاق المرأة

الأخلاق ضوابط جسدية ونفسية نعم الأحياء جميعا. ولا تخص نوع الانسان .

ومن العسير أن نفصل بين الأخلاق الانسانية والأخلاق الحيوانية بحجاز حاسم يقال عن هذا الشطر إنه إنسانى لحيوانية فيه ، وعن ذلك الشطر إنه حيوانى للإنسانية فيه .

ولكن الفصل بينهما قد يتيسر على وجه التقريب بمقياس يصدق في معظم الأحوال ، إن لم يصدق في جميع الأحوال .

فالخلق الانسانى هو الخلق الذى يعتمد على المبدأ والضمير ويتفاضل الأفراد فيه على حسب التفاضل بينهم فى العقل والنبل والنشأة والعادة والنشأة والتعلم .

والخلق الحيوانى هو الخلق الذى يعتمد على الغريزة والوظائف الحيوية ويجرى على وتيرة الحركة الآلية التى لا تحتل التفاضل البعيد بين فرد وفرد وبين فصيلة وفصيلة .

ذاك فردى روحى .

وهذا نوعى جسدى على وجه التقريب بذلك القياس الذى قلنا إنه قد يصدق على معظم الأحوال وإن لم يصدق على جميع الأحوال . . .

وهذا المقياس بعينه هو المقياس الذى يرجع إليه فى التفرقة بين أخلاق الرجال وأخلاق النساء : كل ما هو فردى روحى ، أو اختياري

إرادى ، فهو أقرب إلى خلق الرجل ، وكل ما هو نوعى جسدى ، أو آلى
اجبارى ، فهو أقرب إلى خلق المرأة ، فداره على وحى الغريزة أولاً ثم
على وحى الفهم والضمير .

والأخلاق التى يسمو بها الانسان إلى مرتبة التبعة والحساب أو
مسئولية الأدب والشرعة والدين - هى كما لا يخفى أخلاق تكليف
وإرادة وليست أخلاق إجبار وتسخير .

ومن هنا صح أن يقال إن المرأة كائن طبيعى وليست بالكائن
الأخلاقى على ذلك المعنى الذى يمتاز به خلق الانسان ولا يشترك فيه مع
سائر الأحياء .

• • •

ملاك الأخلاق الاول عند المرأة هو الاحتجاز الجنسى الذى ألغنا
إليه فيما تقدم ، وهو من الغريزة التى يتساوى فيها إناث الحيوان وليس من
الارادة التى يتميز بها نوع الانسان بجنسه .

فالمرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسى لأن الطبيعة قد جعلتها جائزة
للسابق المفضل من الذكور ، فهى تنتظر حتى يسبقهم إليها من يستحقها
فتلبية تلبية يتساوى فيها الاكراه والاختيار .

كذلك تصنع إناث الدجاج وهى تنتظر ختام المعركة بين الديكة أو
تنتظر مشيتها بغير صراع .

وكذلك تصنع الهرة وهى تتعرض للهر وتعدو أمامه ليلحق بها ،
وتصنع العصفورة وهى تفر من فرع إلى فرع ليدركها العصفور السريع ،

وتصنع الكلبة والفرس والأتان وهى مضطرة إلى الاحتجاز لأنه الحكم
القاهرى الذى فرضته عليها وظائف الأعضاء .

والبون بعيداً جداً بين هذا الاحتجاز الجنىسى وبين فضيلة الحياء التى
تعد من فضائل الأخلاق الإنسانية .

فالحياء مفاضلة بين ما يحسن وما لا يحسن وبين ما يليق وما لا يليق وما هو
أعلى وما هو أدنى .

والاحتجاز الجنىسى غريزة عامة بين الإناث ترجع إلى القهر والاجبار
كائناً ما كان التفاوت بينها فى درجة القهر والاجبار .

ومنى بلغ هذا الاحتجاز الجنىسى مبلغه الجنىسى مبلغه الذى قصدت
إليه الطبيعة فقد بلغت الأخلاق الاثنوية غايتها ولم يبق منها ما يلتبس
بالحياء فى صورته ولا فى معناه .

ومن ضلال الفهم أن يحظر على البال أن الحياء صفة أثنوية وأن
النساء أشد استحياء من الرجال . فالواقع كما لاحظ شوبنهاور أن المرأة
لا تعرف الحياء بمعزل عن تلك الغريزة العامة ، وأن الرجال يستحون
حيث لا يستحي النساء ، فيستترون فى الحمامات العامة ، ولا تستتر المرأة
مع المرأة إلا لعيب جسدى تواريه .

ولم يكن عمر بن أبى ربيعة مبالغاً حين قال إن الوجوه يزوها الحسن
أن تتفنع . بل هو لو شاء لقال عن الأجسام ما قال عن الوجوه . . . فلا
تستر الأنثى الفطرية شيئاً يمكنها أن تبديه إذا كان فى عرضه مجلبة للنظر
والاستحسان ، ومن شهد الحمامات العامة على شواطئ البحر رأى كيف

تهمل الأكسية ذات الرقارف المسبلة ليبدو للأنظار مااستر من محاسن الأجسام .

فالخلق الذى تتحلى به المرأة بداهة هو خلق الغريزة الذى يوشك أن يشمل إناث الحيوان .

وكل خلق «إرادى» تتخلق به بعد ذلك فهو فريضة عليها من الرجال تجاربهم فيه على ديدن المحاكاة والمطاوعة سواء فهمته أو جهلت كنهه ومرماه ، ولهذا يكثر فى النساء من يتقيدن بالعرف القديم . لأن قوام العرف القديم عادات ومصطلحات هى أقرب إلى الغريزة الآلية من فضائل الفهم والارادة ، ويندر بينهن جداً من تتحدى العرف بفضيلة واحدة من فضائل الاختيار .

جرى حديث متنقل فى مجلس يضم رهطاً من الرجال والنساء على قسط شائع من التعلم والعرف والآداب الخلقية ، فانساق الحديث إلى سيرة رجل يتجاوز الخمسين ذاع عنه أنه يستدرج الفتيات الغريات إلى داره فيلهو بهن ويظهر معهن فى المحافل العامة ويدفعهن إلى سهرات العبث والمجون ، فكان النساء أقل من حضر المجلس اشمئزازاً من سيرة ذلك الخليع . كأنهن لايرين نقصاً فى رجل من الرجال بعد أن تكمل له تلك الفحولة الحيوانية ، أو كأنهن لايصدقن أن الفتيات الغريات يسقطن فى شراكه مخدوعات مغلوبات على مشيئتهن ، ولكنهن راضيات مسرورات بما أتيح لهن من فرص المتعة والابتهاج .

وكل مابدأ عليهن بعد ذلك من الاشمئزاز فقد سرى اليهن مستعاراً ممن كان بالمجلس من الرجال . فقد كانوا فى هذا المجتمع الخاص كما

كانوا فى المجتمع العام كله « مصدر السلطات على حد قولهم » فى لغة الدساتير .

ومتى سقط سلطان الرجال فى الأمة سقط معه سلطان الأخلاق سواء منها أخلاق العرف وأخلاق الإرادة .

فالأمم المهزومة يشاهد فيها طوائف من النساء يجهرن بمخادنة الجنود الفاتحين ولا يكرهن انهم قاتلو الاخوة والأزواج والآباء ، لأن الخضوع للغلبة ألصق بطبيعة الأنوثة الفطرية أو الحيوانية من جميع هذه الأواصر والآداب .

والعبرة التى تستفاد من هذه الحقيقة أن النساء يוכלن إلى الفطرة فى أخلاق الغرائز والعادات ، ولكن لا يصح أن يتركن فى الأخلاق الأخرى - أخلاق الإرادة والضمير - بغير إيجاء شديد ، بل اكراه يتجاوز حدود الإيجاء .

* * *

والغريزة القاهرة تعلل محاسن المرأة كما تعلل نقائصها ، فتمهد لها العذر بين يدى الطبيعة وان لم تمهدها لها بين يدى القانون والأخلاق .
فالتضحية هى أسمى فضائل الانسان .

وهى فضيلة لا يقدم عليها المرء كل يوم ولا يقدم عليها بغير دافع شديد من وحى الفطرة أو من وحى الضمير .

ولكنها من وحى الفطرة أعم وأنفذ من وحى الضمير ، لأن سلطان اللحم والدم عميق القرار فى بواعث النفوس .

ومن ثم كانت المرأة أقرب من الرجل إلى التضحية في وظائفها النوعية لأنها تستمد تضحياتها من غرائز الأمومة ، وتموت في سبيل الذرية كما تموت بعض إناث الحيوان . ولا تسهل التضحية على الرجل هذه السهولة إلا إذا ارتقى فيه وحى الضمير إلى مرتبة الدوافع الفطرية المودعة منذ الأزل في غرائز الأحياء ، وتلك مرتبة يعز بلوغها على أبناء آدم فلا تزال فيهم من فضائل الأنبياء وأشباه الأنبياء . أو كما قال ابن الرومي :

وعزير بلوغ هاتيك جدا تلك عليا فضائل الأنبياء

وإنما يقدم الرجل على التضحية في جملة أحوالها العامة بغريزة أخرى مغروسة في طبيعة النوع ولكنها أحدث وأقرب إلى الإرادة ، وهي غريزة القطيع التي نشأت مع الخلائق الاجتماعية ولم تنشأ بداءة مع الولادة كما نشأت الغرائز الأنثوية في جميع إناث الأحياء . فإذا تصدى الرجل للقتال في الجيش أو الكتيبة تحرك بإرادة القطيع كله وتغلب بها على الخوف وحب السلامة . ولكنه قد ينفرد بالتضحية التي يدفعه إليها وحى الضمير فيعلو على فضائل الأنواع والجماعات ويعرج بروحه صعوداً في طراز رفيع من الفضائل : هو فضائل الأفراد والأفذاذ .

* * *

والغرائز المختلفة التي تعلل لنا محاسن المرأة تعلل لنا نقائصها التي تعاب عليها من بعض جهاتها . وقد لخصها المتنبي ولخص كل ما قيل في معناها حيث قال : « فن عهدا ألا يدوم لها عهد » .

فهى تتقلب وتراوغ وترائى وتكذب وتخون وتميل مع الهوى وتنسى فى لحظة واحدة عشرة السنين الطوال .

وهى مسوقة إلى ذلك بالفطرة الجنسية التى خلقت فيها قبل نشأة الآداب الاجتماعية والآداب الدينية بألوف السنين . فقد أغرتها الفطرة الجنسية بالميل إلى الأقدر الأكمل من الرجال لتنجب للعالم أحسن الأبناء من أحسن الآباء .

فلم يكن مما يوافق هذه الفطرة فى العصور السحيقة أن تحفظ العهد لرجل واحد ومن حولها رجال كثيرون يتقاتلون عليها ، وقد يغلب أحدهم رجلها الذى تحفظ له العهد أو يطالبها بحفظه .

وكانت الحرب فى بداية الحياة الإنسانية هى مقياس القدرة والرجحان بين الرجال فى قبيلتهم أو فى جميع القبائل المحيطة بها .

فكان من شأن المرأة أن تسلم لظافر بعد ظافر وشجاع بعد شجاع ، كلما دارت رحى الحرب بين غالب ومغلوب وبين الشجاع القوى ومن هو أشجع منه وأقوى .

ثم أصبح المال مقياس القدرة والرجحان بين الرجال . وكان مقياساً صحيحاً فى العصور الغابرة وظل كذلك ألوفاً من السنين ، لأنهم كانوا يكسبون المال غنيمة فى حومة الحرب أو ربحاً من أرباح التجارة التى تقحم أصحابها فى مجاهل الأرض وتهدفهم لأخطار القتل والاستلاب وتلجئهم إلى الحيلة تارة وإلى الحول تارات وتشهد لهم بمقياس القدرة والرجحان عن جدارة واضحة تغنى المرأة عن التفكير ، وهى لاتعمد كثيراً إلى التفكير قبل الاختيار .

قلنا في الفصل الذي عقدناه على رأى المعرى في المرأة من كتابنا المطالعات : « والذي نقوله في جملة واحدة إن المرأة وفيه صادقة : وفيه للحياة لهذا الرجل أو لذلك ، وصادقة في الحب لا في إرضاء أهواء من تحب ، ولو أنعمنا النظر لعرفنا أن المرأة تحون نفسها كما تحون الرجل في سبيل الأمانة للحياة ، وتكذب على نفسها كما تكذب على محبيها في صيانة عهد الحب ، فهي وفيه بالقطرة رضيت أم لم ترض ، وهي صادقة بالإلهام حيث أرادت وحيث لا تريد . . . »

إلى أن قلنا : « تحب المرأة الشباب، ومن ذا الذي لا يحب الشباب ؟ إن الشباب نفحة الخلود وروح من روح الله . تصور الأقدمون الآلهة فلم يفرقوا بينهم وبين الشباب وأسبغوا عليهم كساء سرمدياً من نسجه وبهاء متجدداً من صنعه . شعوراً منهم بأن الشباب سمة الحياة الخالدة وروح المعاني الإلهية وترجيحاً لخير الشباب على شره ولجاسنه على عيوبه .

« . . . ثم تحب المرأة المال ومن ذا الذي يكره المال ؟ غير أننا قد نرى للمرأة سبباً غير سائر الأسباب التي تغرى بحب المال وإعظام أصحابه . نرى أن كسب المال كان ولا يزال أسهل مسبار لاختبار قوة الرجل وحيلته وأدعى الظواهر إلى اجتذاب القلوب والأنظار واجتلاب الإعجاب والإكبار . فقد كان أغنى الرجال في القرون الأولى أقدرهم على الاستلاب وأجراًهم على الغارات وأحماهم أنفاً وأعزهم جاراً فكان الغنى قرين الشجاعة والقوة والحمية وعنواناً على شمائل الرجولة المحببة إلى النساء أو التي يجب أن تكون محبة إليهن . ثم تقدم الزمان فكان أغنى الرجال أصبرهم على احتمال المشاق وتجشم الأخطار والتمرس بأهوال

السفر وطول الاغتراب وأقدرهم على ضبط النفس وحسن التدبير . فكان الغنى في هذا العصر قرين الشجاعة أيضاً وقوة الإرادة وعلو الهمة وصعوبة المراس . ثم تقدم الزمان فصار أغنى الرجال أبعدهم نظراً وأوسعهم حيلة وأكيسهم خلقاً وأصلبهم على المثابرة وأجلدهم على مباشرة الحياة ومعاملة الناس . فكان الغنى في هذا العصر قرين الثبات والنشاط ومتانة الخلق وجودة النظر في الأمور . . . » .

كان هذا كله في العصور الأولى قبل تشعب الحياة الاجتماعية وتعدد الملكات والصفات التي تكفل الرجحان والتقدم للرجال .

ثم تعددت هذه الملكات والصفات فقام في طبيعة المرأة « برج بابل » مخيف من اختلاط الأصوات والدعوات .

كان رجحان الرجل بسيط المظهر وكانت فطرة المرأة البسيطة قادرة على تمييزه بغير إعانت للفكر ولا إطالة للروية .

ثم تشعبت الملكات والصفات ووجد في العالم رجال ممتازون بأكبر المزايا وليس للمرأة من فطرتها البسيطة معين على تقدير مزاياهم وعرفان أقدارهم ، والترجيح بينهم وبين من دوسهم من أصحاب المزايا الفطرية التي تنكشف للنظرة الأولى ولا تحتاج إلى إنعام نظر أو موازنة بين أنواع وأشكال : رجل الحرب الذي يظفر بالقوة والخدعة ، ورجل المال الذي يكسب بالقوة والخدعة ، وكلاهما مفهوم واضح مكشوف على ظواهر الأشياء .

ثم انفصلت الحرب عن الشجاعة في بعض المواقف ، وانفصل المال عن القدرة الراجحة في كثير من المواقف . فأغنى السلاح والكثرة مالا

تغنيه الشجاعة ، وكسب المال بالإسفاف والدناءة وخدمة الشهوات . . . فهذا هو برج بابل الذى لاتدرى المرأة فيه من تسمع ومن تجيب ، والذى تحار فيه قبل التمييز والتفضيل وقد كانت قبل ذلك لائحار في تمييز أو تفضيل .

وزاد برج بابل طبقةً على طبقاته الكثيرة أن الآداب الاجتماعية وآداب الأسرة ظهرت بين الناس وفرضت على المرأة أدباً جديداً غير الأدب القديم : أدباً يطالبها بالوفاء والأمانة ومغالبة الميول إذا تناضل من حولها الرجال ، فرادى فى الحيرة والتبليل ولم يخلق بإزائه فى فطرة المرأة معين على التمييز والاهتداء . إلا ما تقتبسه بالتعلم والتلقين والإيحاء وهو ضعيف محدود لا يقوم لإيحاء الفطرة القديم إذا اشتجر النزاع واضطربت الأهواء .

فانقسم النساء أقساماً شتى فى الأخلاق الفطرية والأخلاق الاجتماعية : قسم مع الفطرة القديمة وقسم مع الأدب الجديد . بل أصبحت كل امرأة مجالاً لتعدد هذه الأقسام تميل مع هذا أو ذاك كلما مالت بها دواعيه .

فنحن إذ نقول إن المرأة تطيع الغرائز الجنسية فى التقلب والمراوغة وخيانة القراء لانقول ذلك لنعذرهما كل العذر أو لنسقط عنها واجب التغلب على هذه الميول التى تغيرت وجهاتها مع الزمن ولا تزال عرضة لكثير من التغير ، فإن الأخلاق لم تجعل لإبقاء الفطرة على عيوبها وإنما جعلت لتهدب تلك العيوب ورياضتها وشد أزر النفس بالمثل الأدبية التى تعينها على عيوبها . ولكننا نقول ما نقول لنذكر أبداً أن فهم الغرائز

الجنسية ضرورى لفهم الأخلاق التى تتصل بها ، فلا فائدة من الحث فى رياضتها بالأدب الاجتماعى قبل البحث فيما يقابلها من أصول الفطرة التى تم جميع الأحياء ، وليس عمومها بين جميع الأحياء يمانع من إصلاحها بالرياضة والتقويم . بل هو الذى يسوغ ذلك الإصلاح ويوجهه ويشر بفلاحه ، لأن الإنسان قد علا فوق سائر الأحياء فمن الواجب إذن - ومن المستطاع أيضاً - أن يعلو فوقها بالآداب والأخلاق .

ومن مفارقات العصور المتأخرة أن ينجم فيها طائفة من الدعاة وأصحاب الآراء يستخفون بالاحتجاز الجنسى الذى كان عصام المرأة من جحاح الأهواء زمناً طويلاً ويستخفون معه بما عداه من الحواجز الجنسية المغروسة فى طباع الأحياء ، لأنها فى رأيهم بقية لضرورة لها من بيئات المعيشة الحيوانية الأولى .

فعندهم مثلاً أن حرية المرأة فى العصر الحديث تبيح لها ما حرم عليها فى العصور القديمة ، فلا يعيبها أن تبدأ الرجل وتلاحقه لتستولى عليه . كأنما كان تركيب الجسم الأصيل فى الأنوثة والذكورة مسألة من مسائل الحريات التى يذهب بها نظام ويأتى نظام ويرمها قانون وينقضها قانون .

وعندهم أن الحيوانات لم تقتصر على موسم واحد فى التناسل إلا لأنها تشبع من الطعام فى هذا الموسم فتمتلئ أجسادها بفيض من الثورة الحيوية يدعوها إلى طلب الذرية .

وليس أجهل بأسرار الحياة - وسر الجنس أكبر أسرار الحياة - ممن يقنع فى تفسيرها وردها إلى أصولها بمثل هذا التعليل القريب .

فإن هذا التعليل القريب لا يكتفى على الأقل لتفسير الظاهرة التي أشار إليها أولئك الدعاة . إذ أن الثمرات النباتية تتوالد في الموسم بعينه وهي الغذاء الذي تعتمد عليه آكلات العشب من الحيوان ، ومتى زادت قوة التوالد في النبات فأحرى أن تزيد قوة التوالد في الأحياء لغير ذلك السبب الذي ذكره وعلقوه بزيادة الثمرات .

ومن الحيوان ما يعتمد على اللحوم دون العشب ويأكل منها طوال العام ، ومنها الأسماك التي لا مواسم عندها للنبات وهي مع هذا تعرف لها مواسم للتناسل وتخرج إلى الأنهار القصية قبل الأوان الملائم للقاء بين جرائم الذكورة والأنوثة .

وقد تختلف الأوبد والدواجن في موسم التناسل ولكنها على التعميم لا تقارب الأنثى بعد حملها ولا تعبت بغريزة النوع للذة الأفراد فالسر أعمق مما يظنون بكثير .

وحواجز الجنس ودوافعه لا تفسر كلها بأمثال ذلك التعليل الهزيل . وما لاشك فيه أن الأخلاق الجنسية كسائر الأخلاق قوامها ضبط النفس وهو لا يوافق الذهاب مع الهوى حينما تعرض المرء للاستهواء ، ولا بد من ضبط النفس والقدرة على الامتناع لتحقيق كل خلق كريم يصلح للأفراد أو للأقوام أو للأنواع .

والإنسان أحوج إلى الحواجز الجنسية من الحيوان ، وليس بأغنى منه عن تلك الحواجز تقدماً مع الحرية كما يخيّل إلى أولئك الثائرة السطحين .

فالحيوان يتشابه ويتماثل ويصعب التفريق بين أفرادهِ في الصفات

المشتركة في سلالة النوع كله . فلاصير على النوع أن يتلاقى أى ذكر بأى أنثى أو ينتجا أمثالها من الذكور والإناث .

لكن الأنواع كلما ارتقت تعددت الصفات التى يكمل بها الفرد ذكراً كان أو أنثى . ويبلغ تعدد الصفات أقصاه في النوع الانسانى سواء بين الذكور أو بين الإناث ، حتى ليكاد الفرق بين رجل ورجل والفرق بين امرأة وامرأة أن يلحق بالفرق بين نقيضين أو مخلوقين من نوعين مختلفين .

فليس كل رجل بديلاً من كل رجل ، وليس كل امرأة بديلاً من كل امرأة . ويجب على الرجل إذن أن يتمتع حتى يتاح له المرأة التى تلائمة ، وعلى المرأة أن تتمتع حتى يتاح لها الرجل الذى يلائمها .

وأن يتعلق الأمر « بالشخصية » المميزة لا بمجرد امرأة كائنة ماكانت أو بمجرد رجل كائناً ماكان ، كما يغنى كل فرد عن مثيله في الأنواع الوضيعة بين الأحياء .

وفي هذه الحالة لاينتفع النوع بكل اتصال تتحقق به المتعة الجنسية ، بل ينفعه الاتصال الذى تتم به الشخصيات وتتوافر فيه أتم صفات الرجال وأتم صفات النساء .

ثم تنشأ الآداب الاجتماعية وحقوق الأسرة وأمانة النسل فإذا هى قد ألزمت الرجال والنساء آداباً من حقها أن تطاع وأن يحسب لها أوفى حساب .

نعم إن هذه الآداب صناعية أو مبتدعة من أحكام البيئة التى خلقها الناس . ولكنها - كجميع الآداب والفروض - تستند إلى أساس فطرى

عريق في الطبيعة وهو ضبط النفس وقوة البنية على مقاومة النوازع والأهواء .

ونضرب لذلك مثلاً صغيراً من المحرمات التي جاءت بها الآداب الدينية أو العرفية بعد ظهورها في المجتمعات الإنسانية . فإن تحريم القمار أو الخمر أو السرقة لم يعرف في آداب الناس إلا بعد ظهور هذه الآفات . ولكن ضبط النفس الذي يناط به الامتناع عنها هو حلقة طبيعية لم تنشأ مع العرف أو الاصطلاح . فلا يزال الفرق بين إنسان يستطيع أن يمتنع عنها وإنسان لا يستطيع الامتناع فرقاً في صمم التكوين الذي لا ينشئه العرف ولا ينسب إلى الأوضاع الصناعية . . .

وكذلك الحواجز الجنسية التي يفرضها المجتمع أو توجهها مصلحة الأسرة هي حواجز لا يقدح في أصلها أنها حدثت بعد حدوث الحاجة إليها ، لأن القدرة عليها فضيلة من فضائل التكوين الأصل .

والرجل الذي يقدر عليها هو رجل ممتاز في خلقته الطبيعية كالمرأة التي تقدر عليها . وكلاهما زوج أصلح من غيره للبقاء وإنجاب الأبناء .

فأسخف السخف أن يظن بالحضارة المدنية أنها رخصة تبيح التهافت على المتعة ونسيان الحواجز الجنسية . لأن التهافت نقص في الخلقة قبل أن يكون نقصاً في الآداب الاجتماعية ، وهذا النقص معيب وخم العقى وإن لم تحرمه الآداب .

وسيطول التبديل والتعديل في العرف والتشريع والشائيل المحبوبة بين الناس كلما تطاولت الأجيال . وسيقول كل ذي رأى قوله الذي يجوز فيه

الجدال . ويبقى حكم واحد لا تبديل له وقول واحد لا يجوز الجدل فيه ،
وهو أن الاحتجاز قوام أخلاق الأنوثة وأن المرأة التي تنساه هي حيوان
ناقص في تكوينه وليس قصارى القول فيها أنها فرد مقصر في حقوق
المجتمع والأسرة ، وأن مساك الأخلاق جميعاً - ما أوجبه الفطرة
وما أوجبه المجتمع - هو ضبط النفس والترفع عن مطاوعة كل عارضة
من عوارض الأهواء . . .

حقوق المرأة

كلما ذكرت حقوق المرأة في العصر الأخير بدت إلى الذهن حقوقها السياسية التي يطالب بها بعضهن ويدور البحث عليها بين أصحاب المذاهب الاجتماعية الحديثة : هل لها حق في ولاية الحكم ؟ هل لها حق في الانتخاب ؟ هل لها حق في الوظائف العامة وتدير المتاجر والمصانع وأسباب الثروة على اختلافها ؟

ونحن في هذا الكتاب لا يهمننا تفصيل القول في هذه الحقوق من الناحية الفقهية أو الناحية السياسية . لأن المهم عندنا أن ننظر إلى طبيعتها وإلى الفوارق الطبيعية بينها وبين الرجل لا إلى تلك الحقوق أو هذه الفوارق التي يحى بها تشريع ويذهب بها تشريع ، وتعرفها أمة وتنكرها أمة ، وتحتل التعديل والتبديل بما يسنح للفلاسفة والساسة من الخواطر والبرامج والبدوات .

ولا يمنع العقل أو الخلق أن تظفر المرأة بما تشاء من الحقوق السياسية أو الحقوق الاجتماعية التي تتغير وتتبدل مع نظم الثروة ونظم المجتمع وأساليب المعاملات .

فلها كل حق لا يخرجها عن واجبها الأول لأنه واجبها الذي لا تحسن غيره ولا يحسنه غيرها - وهو البيت والجيل الجديد .

تنشئ في قلب هذا العالم الصاخب مأوى تسكن إليه البشرية فترة من الزمن من زحام الحياة .

وتنشئ للعالم الجيل الذى يقوى فى غده على هذا الزحام وليس هذا
ولا ذاك عمل الآباء ، فليكن هو إذن عمل الامهات لأنهن إذا تركته لم
يحسن خيراً منه ، ولم يحسنه غيرهن خيراً منهن . . . فى تركه تضيق بغير
تعويض .

* * *

قال شوبنهاور إن « أرسطو شرح فى سياسته ما حاق بأهل إسبرطة من
جاء تساهلهم مع نساء عشيرتهم وتحويلهن حق الوراثة والبائنة ومنحهن
قسماً كبيراً من الحرية ، وبين كيف أن هذا التساهل كان سبباً من
أسباب سقوط إسبرطة واضمحلالها » .

ثم قال : « وما لنا لا نقول نحن أن نفوذ النساء الذى أخذ يمتد
ويشدد فى فرنسا منذ أيام لويس الثالث عشر كان سر ذلك الخلل الذى
ألم بالبلاد والحكومة تدريجاً ومازال بها حتى أفضى إلى الثورة الأولى
وماجرت إليه من القلاقل والأهوال ؟ » .

والحقيقة أن المرأة التى خضعت طائعة أو كارهة طوال آماذ التاريخ
وماقبل التاريخ قد يدعى لها كل شيء إلا السيطرة على الحياة العامة
وتوجيه الدول والحكومات .

فليس فى تجارب العصور ما يثبت ذلك وفيه الكثير مما يدحضه
وينفيه . ومن العبث أن نستشهد على هبة الحكم عند المرأة بالملكات
للأقلى جلسن على العروش الوراثية فى الأزمنة القديمة فانهن مجهولات
المواهب والمناقب مطويات فى حجب الأساطير والأوهام ، مشتركات فى

الحكم غير منفردات حتى في تلك الأزمنة التي كان حكم الفرد فيها مريضاً عنه غير منصوص على بغضه في الكتب والداشير. ولكننا إذا استشهدنا على هبة الحكم بالملكات المعروفات في العصور الحديثة قبل قيام الحكومات الشعبية فهن أبداً بين اثنتين : امرأة مفسدة أو امرأة صلحت بمقدار ما نقص فيها من صفات الأنوثة وزاد فيها من صفات الرجولة وبمقدار ما أعانها من المشيرين والخبراء . والمثل البارز على ذلك مثل « اليبابات » ملكه الانجليز على عهد شكسبير .

لقد كانت الأمم المستعبدة تدين بالملك لإحدى الملكات اللاتي اشتهرن بالعزم والثابرة من طراز كاترين الثانية في البلاد الروسية . فتصلح كما يصلح الملوك الرجال وتفسد كما يفسد الملوك الرجال ، ولكن الأمر الذي يفوت بعض المؤرخين أن البلاد الروسية لم تكن لتحتمل فساد عشر ملكات متواليات من طراز كاترين كما احتملت فساد عشرات من الملوك الذين توالوا على عرشها القديم . لأن فساد جيل واحد في حكم كاترين الثانية قد هدم نظام جيشها وعرضه للهزائم مدى أجيال .

وما لم يكن أنصار الحقوق النسائية يزعمون للمرأة أنها أقدر على الحكم من الرجل فقضارى ما يزعمونه أن الرجل مثلها وأنها هي مثله في سياسة الحكومة . فلا ضير إذن من تفرد الرجل بالحكم لأنه سيحكم كما تحكم ولا يهبط بالسياسة إلى ما دونها . وإنما الضير أن تنصرف هي عن تنظيم البيت وتنشئة الجيل المقبل وهي صاحبة هذا العمل وأولى به وأقدر عليه .

واعتقادنا أن الطريق يطول بنا قبل الوصول إلى نتيجة من سألنا عن

مساواة المرأة للرجل في الحقوق السياسية وهل لها حقوق هذه المساواة أو ليست لها هذه الحقوق ؟

لكننا ننهى إلى الغاية قبل ذلك إذا سألنا : هل تنفيذها هذه الحقوق ؟ وهل تساوى فائدتها الشبائل البيتية إذا توفرت عليها النساء ؟

واعتقادنا هنا أيضاً أنه لا النساء ولا الرجال يصلحون المجتمع بالقوانين والأصوات الانتخابية . وأن القانون المستقيم يعرج في المجتمعات العوجاء ، ويساء تطبيقه وتنفيذه ولو أفرغ في قالب الكمال . فإذا صلح تطبيق القانون وجرى تنفيذه على سنة العدل والانصاف فلا بد لذلك من صلاح سابق وتمهيد شامل يبدأ من البيت والمدرسة ويعم الشارع والخانوت .

وعند المرأة حقوق غير حقوق الانتخاب تصل إليها إلى التوجيه والطلب والإيحاء ، وهى حقوق الأم وحقوق الزوج وحقوق الخطيبة وحقوق الصديقة الموحية إلى الذهن والعاطفة والخيال ، فإن كانت هذه الحقوق مشلولة في يديها فذلك هو إفلاس الأنوثة الذى لا يعوضها عنه عوض قط يأتي من جانب التشريع وأصوات الانتخاب .

ولسنا نعرف كلمة وزنت حقوق المرأة كما وزنها التشريع الإسلامى حيث جاء في القرآن الكريم : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

فميزان حقوق المرأة الخاصة هو واجباتها الخاصة . وواجباتها الخاصة هى الواجبات التى تحسنها ولا يحسنها غيرها ولا تحسن عملاً أفضل منها .

وهى الأمومة وتنظم الحياة البيئية . عمل إذا تركته لم يخلفها الرجل عليه ولم تتول عملا آخر أجدر منه بولايتها .

ذلك هو ميزان واجباتها وحقوقها .

وللرجال عليهن درجة الاشراف على الحياة العامة التى انفردوا بها منذ نشأت فى العالم حقوق أو واجبات اجتماعية ، وانفردوا بها بحكم الفوارق التى بينهم وبين النساء فى تركيب الأجسام وخصائص الخلق والتفكير .

نعم إن زحام العيش فى العصر الحديث يُلجئ المرأة إلى كسب الرزق بالعمل ولا يغنيها بالحياة البيئية عن المشاركة فى الحياة الخارجية ولكن المرأة كانت فى الحقيقة تعمل للرزق منذ كانت ولم تبدأ العمل للرزق فى العصور الأخيرة .

فإذا كانت هذه العصور كفؤا لمقابلة الضرورات التى تواجهها فهمتها الكبرى هى تقسيم العمل بين القادرين عليه بحيث لا يحور عمل المرأة على رسالتها فى الحياة : وهى رسالة الأمومة والبيت والأسرة .

وكم من عمل تستطيعه المرأة ولا يحور على تلك الرسالة !

بل كم من عمل يتمم أعمال تلك الرسالة ويوافقها ويحرى فى أثرها كأنه جزء منها !

فهناك تربية الطير والدواجن وصناعات الألبان والفاكهة والرياحين ومشاركة الأزواج والآباء فيما يقدرون عليه من أعمال الريف والزراعة الحفيفة والاشتغال بصنوف كثيرة من الصناعات الدقيقة التى قد تجيدها الرفية والحضرية على السواء ، ومنها النسج والتطريز وتنسيق التحف

وسائر الحرف اليدوية التي تمارسها يد المرأة منذ عهد الحضارة الأولى ،
كله عدا التعلم والتطبيب والمؤاسة في البيوت ودور العلاج .

فالذى يضمن على المرأة بالعمل في غير هذه الميادين لا ينكر عليها حقاً
من الحقوق ، ولكنه يحيلها إلى واجبها الأصيل أو يوفق بين حقوقها
ورسالتها الوحيدة في العصر الحديث على التخصيص . لأنه عصر يشتد
فيه الكفاح . والعصر الذى يشتد فيه الكفاح لا يستغنى عن حضانة المرأة
الرفيقة بل هو أحوج إليها ، ولا يلغى البيت ويهدمه بل هو أخرى أن
يدعمه ويحرس جهه ، ولا يحند المرأة لاقتحام الزحام بل يمنحها تهوين
هذا الاقتحام

وقد قيل كثيراً عن استغلال المرأة في العصور الحديثة وليس كل ما
قيل بالكذب وليس كل ما قيل بالصحيح .

ولكننا لا نعرف استغلالاً للمرأة هو شر من استغلال قضيتها في
ترويج المذاهب الاجتماعية التي تهدم الأسرة وتبطل مزية المرأة باسم
المساواة بين النساء والرجال .

فتقسم المزايا بين النساء والرجال أفاد الإنسانية قياً من الأخلاق
والعواطف يحورها التشابه المزعوم بين الجنسين ، والمساواة المدعاة بين
الفطرتين .

ولم يزل من دأب الطبيعة أن تقسم الوظائف وتغنم منها المزيد من
التنوع والتحسين في صور الأخلاق وألوان الإحساس .

فانقسام النوع الإنساني إلى جنسين قد زاد ثروته من صور الأخلاق

والوان الإحساس ، بما خص النساء من صفات لا تكمل في الرجال وما خص الرجال من صفات لا تكمل في النساء . وهذه هي القيم الحيوية التي لا يفرط فيها أحد يعلم ما معنى التقدم والارتقاء في أطوار الحياة .

ونشأة الأسرة قد أنشأت بين الناس تلك الأواصر التي هي أساس العلاقات الاجتماعية وأساس الشعور بالألفة والمعاطفة أو الشعور بسجية الولاء والايثار والتضحية أو الشعور بالتوقير والحنان والرفق والايناس ، وأشبه ذلك من ألوان الشعور التي ما كان لها من أصل تنفرع عليه لولا أصل الأسرة القديمة ، حيث اتصل الآباء والأمهات والأبناء والأزواج والزوجات بتلك الوشائج النفسية فتعددت في طوية الانسان ألوان المودة وتفرعت من الاسرة إلى البعداء فالأبعدين ، ولا تزال تسرى وتنفرع إلى غير انتهاء .

تلك هي القيم الحيوية التي استفادتها البشرية من تقسيم الوظائف بين الجنسين ، ومن قيام الأسرة وهي تحوى الكبار والصغار من كلا الجنسين ، فتحوى العلاقات بين جميع الأسنان والمدارك والحواليج وضروب الطاقة والاقتدار .

فهذه القيم التي هي مكسب الحياة النفيس من مخلفات الزمن القديم هي الثروة التي يعصف بها بعض الدعاة حين ينكرون الأسرة وينكرون الفوارق بين الرجال والنساء ، ثم يبنون حياتهم الاجتماعية على نحو هذه الفوارق وإلقاء ما كسبناه من تنوعها في عرض الطريق .

وانهم ليفعلون ذلك لأنهم يريدون اثبات مذهبهم وتأبيده لا لأنهم

ينظرون إلى حقائق الدنيا ويحسون في طويتهم حسها السلم ويغارون على ثروة الحياة من القيم والمغانم الروحية . وافانين الشعور والتفكير .

فاتباع كارل ماركس - وهم أصحاب هذه الدعوة - يفرضون المائلة بين النساء والرجال لأنهم لو قصروا الكلام على العمال في مواجهة رأس المال بقى النساء وخشوا أن يقوم رأس المال على العاملات ، فوجب عندهم على هذا أن يصبح النساء مثيلات للرجال ليتاح لهن التغلب على رأس المال .

ولولا أن هذه المائلة لازمة لتأييد مذهب الماركسيين لما سلخوا بها هذا المسلك ولا استغلوها لدعوتهم ذلك الاستغلال .

* * *

فى الهند تكثر القردة ويكثر من قديم الزمن من يستغلون ذكاءها وقدرتها على التعلم فيعلمونها بعض الحيل المضحكة وبعض الحركات البهلوانية ويطوفون بها على الناس ليعرضوا عليهم حيلها وحركاتها ويكسبوا القوت التزر من هذه الصناعة المزدراة .

فخطر لبعض المستغلين على طراز العصر الحديث أن يستغلوا هذه القدرة فيما هو أنفع وأجدى ، وأن يجربوا تدريب القردة على تحريك أنوال النسيج وهو أسهل وأبسط من الحركات البهلوانية المعقدة التى تحذفها ولا تخطئ فيها بعد المراتة عليها . ففعلوا ونجحت القردة فى إدارة مصنع صغير يشتمل على عدة أنوال . . . ولكنهم لاحظوا أنها إذا اجتمعت معاً فى بقعة واحدة غلبت عليها طبيعة اللعب التى ركبت فيها ففركت العمل أو عبت به وأفسدته ، فعالجوا ذلك بالرقابة والارهاب ،

ووكلوا بها حارساً يحمل سيفاً مصلتاً كلما ونى من القردة وإن أو عبث
عابث أهوى عليه بالسيف فطاح برأسه فإذا هي قد نفضت عنها العبث
وهرولت إلى العمل ، وجدت فيه فلم تزل جادة غاية الجدة برهة من
الوقت حتى تنسى الرأس الطائح فيعاد عليها الدرس الخفيف من جديد .

* * *

لو علم كارل ماركس وأتباعه بقصة هذه القردة وعلموا أن شيوعها
مستطاع في معامل النسيج الحديثة وغيرها من المعامل التي تشبهها لما كان
بعيداً منهم أن يعمموا الحقوق والمشايات قليلاً أو كثيراً حتى تنطوى فيها
فصائل القردة . . . ولا تنطوى على نوع الانسان وحده من العاملين
والعاملات بين الرجال والنساء

لأن المذهب عندهم ليس بحق لأنه حق . وليس بباطل لأنه
باطل ، ولكنه حق بمقدار ما يثبت من دعوتهم ويمهد لها ، وباطل
بمقدار ما ينقص من دعوتهم ويعترض في سبيلها ، ولولا ذلك لما عموا
عن الفوارق في الخلق وعن فائدة الإنسانية من تنوع هذه الفوارق
وخسارتها بمحوها وتعفية آثارها

* * *

ولقد سلكوا في نظرتهم الى الأسرة مثل هذا المسلك فأنكروا
فضلها في خلق الأواصر والعواطف وتوليد الحقوق والواجبات بين الأفراد
من الأقرباء والبعداء ، ولم يعرفوا لها إلا أنها أعانت الاستغلال في عصور
الاقطاع خاصة فارتبط بها نظام الميراث وقامت عليها قواعد الملك
والادخار والتوريث وتعاقب السادة من النبلاء والفرسان . وخلطوا

كدأبهم بين كراهة الطبقة كأنها جزء من نظام الثروة العامة وبين كراهة الطبقة كأنها جزء من الانسانية يعمل عمله في توليد تراثها وتزويدها بالقيم الأدبية ويترك لها محصوله من هذه القيم فيتعين عليها أن تصونه وتضيف اليه كما صانت المخترعات والآلات ولم تقل إنها تنبذها وتعق على آثارها لأنها من توليد عصور الاقطاع أو عصور المرابين والمستغلين

فاذا كانت القرائح الذهنية قد أبدعت الصناعات والآلات التي أعانت على تسخير الضعفاء وطغيان الأقوياء فمن الحسن أن تذهب السخرة حيناً أمكن ذهابها وليس من الحسن أن تذهب القرائح الذهنية ولا أن تذهب الصناعات والآلات أو تحتقر القدرة التي تسنى بها الابداع والاختراع

وإذا كانت عواطف الأسرة قد أخرجت للناس قانوناً يضير أو سنة تعاب أو عادة تتخلف عن أوانها فمن الحسن أن تذهب القوانين والسُنن والعادات وليس من الحسن أن تذهب عواطف الأسرة ولا أن ترجع إلى مصادرها من فوارق الطباع والحواليج بين الأزواج والزوجات والآباء والأبناء، فننعاها ونسفه أحلام المعتزين بها ونبطل هذه الفوارق من معدنها ونقول إن وشائج الرحم بين الأنوثة والذكورة فضول من بقايا عهد الاقطاع أو بقايا عهد الرعا أو بقايا عهد الربا والاستغلال . فكل لون من ألوان الوشائج الانسانية فهو قيمة نفسية نجتمعها ونقتنيها ونضيفها الى ذخائرنا الحيوية ولا نفرط فيها كما لم نفرط في القيم الصناعية والقيم الذهنية ، فليست كل ثروة الانسان ثروة مصنوعات ومخترعات ، وليس الزاد الانساني - زاد الاحساس والعاطفة وأفانين الشعور والحلجات - هو الزاد الرخيص الذي يستوى أن يبقى أو يذهب من حيث جاء .

وستنال المرأة من حقوقها الصحيحة أو المزعومة كل ما تستطيع المرأة أن تأخذه وكل ما يستطيع الرجال أن يمنحوه أو ينزلوا عنه .

ولكن الحقوق التي تقوم على محو الفوارق بين الجنسين في تكاليف الأسرة والحياة الاجتماعية هي من بداية الأمر ليست بحقوق كما يسميها المتحدثون بها . لأن الحقوق لا تناقض طبيعة التكوين . . .

وهي بعد هذا ليست مما يملكه الرجال لينزلوا عنه طائعين أو كارهين ، وليست مما تأخذه المرأة لأنها لا تريد في الخلق ولا تنقص منه ما تشاء . ومحو الفوارق قضاء بيد الطبيعة لا بأيدي الأمم أو أيدي الحكومات ومجالس التشريع .

وربما استقرت الحقوق الاجتماعية طويلا على ظلم المرأة لأن ظلم الضعيف سنة معهودة في الطبيعة لم تبطل قط ولا نخلها تبطل كل البطلان في حياة الحيوان ولا في حياة الانسان .

ولكن الحقوق الاجتماعية لا تستقر طويلا على ظلم الرجل لأنه اختلال ينقض سنة العدل وسنة الطبيعة على السواء .

ومن ظلم الرجل ألا تكون له مزية في الحقوق الاجتماعية وهو أقدر عليها من المرأة كيفما تقلبت الآراء . فهذا يبلغ من غلو المتحدثين بالمساواة فهم على الأقل لا ينكرون أن الرجل يقدر على أعمال كثيرة في خارج بيته لا تقدر عليها المرأة ولوفى بعض الأوقات التي تشغل فيها بالحمل والحضانة وتدير البيت .

ومن ظلم الرجل ألا تكون رقابته على المرأة أوفى من رقابة المرأة

عليه . لأنها إذا فرطت في حقوقه ألحقت به نسلا غير نسله ، وهو إذا فرط في حقوقها لم يلحق بها نسلا غير نسلها ولم يخالف بذلك قوام خلقه الأصل في جميع الذكور ، فإن الذكر يؤدي فريضة النوع إذا اتصل بأكثر من انثى واحدة ، وليس للأنثى فريضة نوعية تؤديها إذا اتصلت بأكثر من ذكر واحد ، إلا أن تكون شهوة خائنة أو تحلافاً من متانة الأخلاق

ومن ظلم الرجل أن تنكر عليه العزيمة والإرادة وما يتبعها من وجوب الطاعة في بعض الشئون إن لم يكن معظم الشئون . فتركيب خلقه هو تركيب المرید وتركيب خلق المرأة هو تركيب المليية أو الموافقة للإرادة الأخرى . وما كمن في دخيلة الجنس منذ الازل هيئات تبدله أقوال المجالس وصفحات الكتب ونصوص الدساتير .

وكل نظام اجتماعي يبني على هذا « الظلم » عبث وضلالة ولو طغت به نوبة من نوبات المذاهب المغرضة إلى حين : فلعل صلاح المذاهب للدوام لا يعرف من دليل حاسم كما يعرف من دليل الفوارق السرمدية بين الجنسين ، ومن مبلغ الجور على حدود الطبيعة إزاء الرجال وإزاء النساء .

ومن لغو القول أن يسهب الباحثون في حقوق المرأة بعد أن تتيسرها رعاية البيت وتنشئة الجيل الجديد ، فهذه الحقوق فضول لا تريده المرأة ولا تحب به إذا جاءها بغير سعى منها ، بل هو وهم لا ينجيء بسعى في مقدور ساع أو ساعة . وإن المرأة تطالب المجتمع والرجال بما يملك المجتمع أن يعطيه وبما يملك الرجال أن يعطوه . وليس إلغاء الفوارق ونتائجها مما يعطى بقوة أو بحيلة ، أو مما يساغ فيه الأخذ والعطاء .

الجنس

ظواهر الجنس أعرق وأهم وأشيع في دنيانا من أن يتركها الانسان
تمضى به ذلك الزمن الطويل بغير فهم أو بغير تفهم يحاول به التحقيق من
طريق التخمين والتوفيق ، إن أعوزته وسائل العلم إلى الفهم الصحيح .
وقد خمن وأصاب .

فقال قديماً بلغة الأساطير ، مايقوله الباحثون اليوم بلغة العلم
والفكيروالتفكير ، ولس الحقيقة بخيال الشاعر وفطنة الساحر قبل أن
يلمسها بمبضع الجراح ومجهر الكشاف .

وخلاصة مايقوله العلم اليوم إن الحياة التي لاجنس لها سابقة للحياة
التي انقسمت إلى جنسين ذكر وأنثى ، وإن صفات الجنسين موزعة
بينهما في أصولها الأولى . وإن هذا التوزيع في أرفع الأنواع الحية لم يبلغ
من الجسم مبلغه الذي يمنع كل تماثل ويدفع كل التباس .
وقديماً لحت الأساطير إلى هذه المعاني برموزها التي تطوى الحقائق
ليشرها من يريد كما يريد .

فى أسطورة من أساطير اليونان القديمة أن الذكر والأنثى كانا بنية
واحدة فشققها الآلهة شقين لأنهم أوجسوا خيفة من تمردها وعصيانها ،
وأنها لا تفتأ منذ انشقت نصفين يبحث كل منهما عن صاحبه ليم به
ويرجع معه إلى أصله .

وفى أسطورة أخرى هى أعمق الأساطير فى معناها إشارة إلى اختلاط

الصفات الجنسية على نحو لا يقال في لغة الرموز ما هو أصدق منه ولا يبين عن الحقيقة . وفحوى هذه الأسطورة أن رباً من الأرباب وكل إليه أن يصنع جمهرة من الذكور وجمهرة من الإناث ثم دعى إلى ولية في الألب فسكرو وعربد وذهب إلى مصنعه مخموراً لا يعي من الحمار وأمامه عمل النهار ولم يصنع منه شيئاً وليس له أن يرجئه إلى غده . لأن الأقدار تصنع كل شيء بميعاد لا يختلط بغيره . وكان قد أعد الأعضاء والجوارح والحوالج والأحاسيس ونوى أن يميزها ويقسمها قسمين قبل أن يضعها في أمها وتراكيبها ، فلما أعجل عن التمييز والتقسيم إذا هو يتناول الإهاب فلبق في فيه بما اتفق له من الأعضاء والخصائص والطباع ، فيقذف قلب رجل في إهاب امرأة ويضع رأس امرأة على عنق رجل ، ويمنح فتاة عضلات فتى أو يمنح فتى أعطاف فتاة ، فلم يأت الموعد الموقوت حتى كان قد فرغ من عمله وصنع كل ما عنده من الذكور والإناث ولكنها هذه الصنعة المختلطة التي يلتبس فيها النظر وتختلف فيها الأسماء والمسميات . فلا يندر أن ترى امرأة لها صلابة رجل أو رجلاً له رقة امرأة ، ولا يتفق لك دائماً أن ترى رجلاً بجثا كله رجولة أو امرأة بجثا كلها أنوثة ، ولا أن توافق المسميات ما أطلق عليها من الأسماء أو ما أودعته من الجوارح والأعضاء .

وجاءت الفلسفة في القرن الماضي فأعادت هذه الأسطورة بالصيغة الفلسفية التي اختارها النابتة الألمانى « أوتوفيننجر » في كتاب الجنس والأخلاق . ومجمل رأيه كما لخصناه في كلامنا على حب المرأة من كتابنا ساعات بين الكتب : « أنه لاذكورة ولا أنوثة على الإطلاق ، وإنما هي نسب تتألف وتتخالف على مقاديرها في كل إنسان ، ولا عبرة فيها بظواهر

الجوارح والأعضاء ، فإذا فرضنا مثلاً أن صفات الذكورة مائة في المائة فأين هو الرجل الذى تم له المائة جميعها بلا زيادة ولا نقصان وتتألف ذرات تكوينه واحدة واحدة بلانشوز والانحراف ؟ وكيف تجتمع له هذه الصفات المتفرقة بحيث لا تتخلف صفة ولا تحل واحدة محل أخرى ؟ وكذلك النساء أين منهن المرأة المرأة التى هى مثل أعلى لجنسها جامع لكل ماهو نساءً فى الجلال والعقل والعاطفة والأعضاء والهندام ؟ إن هذا الاتفاق لا يمحى به الواقع لأن التمام من وراء ما يبلغه الانسان أو كائن سواه فى هذه الحياة . ولكنها أمور نسبية تدخل فيها صفات الرجولة والأنوثة كما تدخل فيها صفات سائر الأشياء . فليس فى الدنيا رجل هو الرجولة كلها وليس فى الدنيا امرأة هى الأنوثة كلها ، وهيهات أن تقع على إنسان فيه كل صفات جنسه فى جميع أخلاقه وأطواره كما تقع كل يوم على قطرة ماء فيها كل صفات المائىة التى لا بد منها لتكوين كل قطرة . فإن العناصر هنا مقيدة بمحدودة . أما عناصر الطابع والأخلاق والمواهب والأجسام فما لا يقيدده الحد ولا يحده التقدير .

وعلى هذا « يجب الرجل المرأة أو تحب المرأة الرجل على حسب ما بينهما من التوافق والتباين فى تلك العناصر والصفات . فالرجل الذى فيه ثمانون فى المائة من الرجولة وعشرون فى المائة من الأنوثة تتممه امرأة فيها ثمانون فى المائة من الأنوثة وعشرون فى المائة من الرجولة . ويجوز على هذا أن توجد امرأة ليس لها من جنسها إلا ظواهره ، فتكون هى التى فيها الثمانون فى المائة من الرجولة وهى التى تنشده الرجل الذى فيه عشرون فى المائة من صفات جنسه . ومن هنا تنشأ الميول الشاذة فى الجنسين وتنبو الطبايع عما خلقت له فى سواء التكوين . . . » .

والعلم الحديث يعرف هذه المعالم الجنسية ويعرف هذا الاختلاط في توزيعها بين الجنسين ، ولكنه يعرف ذلك على نهجه لا على نهج الشاعر في أسطوره ولا على نهج الفيلسوف في حذسه وتقديره . . . وسينتهى إلى الحقيقة المحصنة حيناً بدأ من البداهة النافذة والواقع المشاهد ، وهما لا يأذنان له بالضلال عن سواء النهج وإن تشعبت مسالك الناهجين عليه .

ومن الثقات الراسخين في علم الحياة اثنان يعتمد على ذكائهما كما يعتمد على تجربتهما في هذا الموضوع . وهما سنيارثور ثومسون Arthur Thomson وسيرباتريك جيدس Patrick Geddes صاحب كتاب تطور الجنس Evolution of Sex وغيره من المراجع المتعدّ بها في علم الحياة .

فهذان العالمان الجليلان ينزلان بالفارق بين الجنسين إلى قرارة المادة الحية التي تتمثل في النبات . ويوشك أن يجعلنا في الأنوثة شيئاً من النباتية التي تمكث في موضعها ، وفي الذكورة شيئاً من الحيوانية التي تنفق من مادتها بالحركة .

ويمكن أن نتوسع في شرح رأيها فنقول إن التفرقة عندهما بين الأنوثة والذكورة كالتفرقة بين التجميع والتصريف ، أو بين الاختزان والاحتراق ، أو بين الاحتجاز والاندفاع .

ففي كل كائن حي عملاقان كيميائيان يتقابلان ويتكافآن ، وهما البناء والتصريف ، أو جمع الغذاء وحرق ما اجتمع منه . ويتبين هذا في الورقة الخضراء التي يعرضها النبات للشمس فيجري

فيها بناء مادة من السكر وماشابهه ، وذلك فيما يرى العالمان الجليلان أهم عمل كيمي في الخليقة . لأن جزءاً من قوة شعاع الشمس يستخدم لصنع مركبات الكربون من ثاني أكسيد الكربون الذي في الهواء وفي ماء التربة .

ولوفرة المادة التي يبنها النبات لغذائه يستطيع أن يعتمد عليها كما يعتمد معه آكلو العشب من جميع الأحياء .

إلا أن الحى الذى يتحرك ويعمل يحرق جزءاً من مركبات الكربون فيه وتنطلق القوة منه كما تنطلق من الآلة البخارية .

فالذكورة هي حالة البنية التي تتطلب احتراقاً أعنف وأكثر وأقرب إلى الاطراد من الأنوثة ، والأنوثة هي حالة البنية التي تتطلب تجميعاً للغذاء أهدأ وأقرب إلى القرار من الذكورة .

أو هما كما أسلفنا يفرقان بالقدرة على التجميع والقدرة على التصريف ، ويفترقان بنزعة الاحتجاز ونزعة الاندفاع ، ولنا أن نترجمها في لغة الأدب والواقع المشاهد بالفرقة بين التلبية والافتحام ! وكأنما قال العالمان إن الرجل حى النزعة في مجمل صفاته . وإن المرأة نباتية النزعة في مجمل صفاتها .

وهي هي ماتزال منذ درجت من الحياة الأولى « تلك الشجرة » التي تبسط زهرتها وهي في مكانها لتتلقى فيها اللقاح على جناح الهواء .

وكل بنية حية ففيها التزعتان متقابلتين متكافئتين . فحيث زادت القدرة على التجميع فم أنوثة ولو حملت غير اسمها ، وحيث زادت

القدرة على التصريف فثم ذكورة ولو حملت غير اسمها . . . وعود على بدء إذن إلى أبسطورة الرب السكران .

* * *

وأيا كان تعليل العلم لنشأة الفوارق الجنسية في قرارها فالعلماء المحدثون المعنيون بمسائل الجنس يرجعون بالاختلاف بين مزاج الذكورة ومزاج الأنوثة في جسد الرجل والمرأة إلى الهرمون الذي تفرزه الغدة الصماء ، وهو سائل شفاف يسرى في الجسم من غدد ثلاث توجد في أجسام الأحياء الفقارية ، إحداها الغدة الدرقية في الحلق ، والثانية الغدة النخامية في أسفل الدماغ ، والثالثة الغدة الكظرية على مقربة من الكليتين ، وهي عظيمة الأثر فيما يشاهد من الاختلاف بين أجسام الذكور والإناث بعد سن البلوغ ، ومي تشخصت الذكورة والأنوثة ظهر الفارق الأكبر في تركيب الخصية وتركيب المبيض ، فاختص الرجل بافراز المنى واختصت المرأة بافراز البويضات .

ومن التجارب في بعض الحيوان كالجرذان يلاحظ أن استئصال الغدة المنوية يميل بالحيوان إلى مزاج الأنوثة ، ولكنه إذا استئصل منه المبيض لا يستعير مزاج الذكورة إلا باضافة الغدد المنوية إليه .

وقد يتفق أن يكون في الانسان خصية ومبيض بدلا من الخصيتين ، فيسرى في جسده افرازات يميل به إحداها إلى الذكورة ويميل به الآخر إلى الأنوثة ، ويشاهد في مثل هذا الانسان أحيانا مشابه من المرأة في الصدر وبعض الأعضاء الداخلية .

على أن الحيوانات الدنيا تتناوب الذكورة والأنوثة كما في بعض

الحالات النادرة . فتكون المحارة البالغة ذكراً ثم تنقلب أنثى ثم تعود ذكراً مرة أخرى . وهى لاتلد البويضات إلا إذا ارتفعت الحرارة حولها إلى درجة معلومة . ففي الدرجة من عشرين إلى اثنتين وعشرين تنقلب المحارة أنثى مرة في كل سنة ، وفي الدرجة الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة تنقلب أنثى مرة كل ثلاث سنوات أو أربع سنوات ، ولاتنقلب أنثى فيما دون هذه الدرجة على الإطلاق .

وتشاهد هذه الظاهرة في بعض الأسماك الصغرى وبعض الحشرات المائية ، فيحدث فيها التحول على نحو يشبه التحول في المحار ، ولا يشترط فيه تفاوت الحرارة بذلك المقدار .

فالفوارق بين الجنسين تتقارب كلما هبط الحيوان في سلم الخلق حتى تزول الفوارق جميعاً في الخلية الأولى ، ولكنها تتشعب وتتعدد ويصبح التحول بينها فلتة من فلتات الفوارق كلما ارتقى الحيوان في سلم الخلق ، حتى تبلغ هذه الفوارق قصاراها من التنوع والتكاثر في بنية الانسان

* * *

ومع هذا يوجد الفارق بين الخلايا للنوية والخلايا البيضية محسوساً مميّزاً لمن يكشفه بالمجهر ، فتختلف الخلية المنوية من الخلية البيضية بالحركة والشكل والتركيب .

والخلايا المنوية في الحيوانات اللبون هي التي تقرر جنس الجنين ذكراً يكون أو أنثى . . . لأن الذكر يفرض نوعين من الخلايا أحدهما يشبه خلية الأنثى والآخر خاص بالذكورة لا يشبه البويضات الأنثوية . فإذا امترجت عند اللقاح خليتان متشابهتان فالمولود أنثى وإذا امترجت خليتان مختلفتان فالمولود ذكر . لأن الخلية المختلفة هي التي تعطيه صفة الذكورة

وقد لوحظ أن خلية الذكر تتألف على الأكثر من نواة تميل إلى الحركة وتقل فيها المادة الغذائية الأخرى التي تكثُر في الخلية الأنثوية . وتقبل مادة النواة الاصطباغ فيسهل تمييزها بألوانها . ولذلك سميت في اللغات الأوربية Chromosome نسبة إلى الصبغ والتلوين .

وفي كل خلية عدد من هذه الصبغيات يتساوى في خلايا النوع كله . أقله صبغيان اثنان كما في الدودة الحيطية التي تعلق بالحبل ، وأكثر ما شوهد منه في خلية الانسان حيث يبلغ عدد الصبغيات ثمانية وأربعين . ولكن هذا العدد ليس بالمهم في الدلالة على ارتقاء النوع . . . لأن بعض الحشرات الحلزونية تشتمل خلاياها على مثل هذا العدد .

إنما المهم أن عدد الصبغيات بعينه يتكرر في كل خلية من خلايا الجسم كله ، وإن الخلية المنوية تشتمل على نصفه فقط ، وكذلك الخلية البائية ، كأنما الملحوظ من البداية أن النصفين يكونان خلية واحدة هي التي يتخلق منها الجنين .

ومن عجائب الاختلاف العريق بين خصائص الذكورة وخصائص الأنوثة أن عدد هذه الصبغيات في خلية الذكر سبعة وأربعون وفي خلية الأنثى ثمانية وأربعون . والذي يحدث عند اللقاح أن خلية الذكر تنقسم نصفين وخلية الأنثى تنقسم نصفين ثم يتقابل نصف من هذه ونصف من تلك . فإذا كانا عند الامتزاج يؤلفان ثمانية وأربعين فالمولود الذي يتخلق من هذه الخلية أنثى ، وإذا كانا يؤلفان سبعة وأربعين فالمولود الذي يتخلق من الخلية ذكر . . . وكأنما النواة الكثيرة الحركة هي العوض في خلية الذكر من الصبغى الناقص فيها .

مأعجب بداهة الأساطير في النفاذ إلى حقائق الحياة !

ففي الأسطورة التي أشرنا إليها زعموا أن الذكر والأنثى كانا في النوع الانساني بنية واحدة فأوجست الآلهة منها متحدين متفقين فشطرتهما شطرين . فهما منذ تلك اللحظة يبحث كل منهما عن النصف الآخر ليتم به نقصه ويحد فيه لفقه الذي يسكن إليه .

• وتلك هي الحقيقة في ظلمات الرحم تشطر الذكر والأنثى نصفين ثم تطلق كلا منهما يبحث عن لفقه حتى يسكن إليه ثم تطلقها بعد ذلك نصفين في كل منهما حنين إلى النصف الآخر يبحث عنه حتى يلقاه .

* * *

« خلاصة هذا جميعه أن الجنس محدود الفوارق منذ الخلية الأولى ، وإن هذه الفوارق كائناً ما كان اسمها ترجع إلى فارق واحد يلخصها بأجمعها ، وهو مزيد من الإقدام في جانب الذكورة ومزيد من الإحجام في جانب الأنوثة ، أو مزيد من الإرادة يقابله مزيد من التلبية ، أو مزيد من التصريف والحركة يقابله مزيد من التجميع والدعة . ثم يتفرق هذا الفارق الوحيد على مئات من الصور في كل من الجنسين .

والباحثون المعنيون بالجنس يسجلون درجات من الفوارق بين الرجل والمرأة تتفاوت في الظهور بين ماهو ظاهر من اللحمية الأولى إلى ما يظهر بعد كثير من البحث أو قليل : وأشهر من تكلم في هذه الفوارق الباحث الانجليزي Havelock Ellis في كتبه الكثيرة وبخاصة كتابه « الرجل والمرأة ودراسة الخصائص الثانية والثالثة بينهما » .

Man and woman A. Study of Secondary and Tertiary sexual characters

وهو كتاب جامع تناول فيه الفوارق التي تبدو من المشاهدة والفوارق التي تبدو بعد الفحص والتحليل في كل جزء من أجزاء البنية

الانسانية . . . فاستقصى ذلك أحسن استقصاء مما يضيق بنا المقام هنا لو شرحناه أو لخصناه .

ولكننا نلم بالفوارق الذهنية أو الفوارق النفسية العامة فنجتزئ منها ببعض الملاحظات التي تدل على سائرها :

فمنها - ولعله أهمها - أن النساء الموسومات بالعبقرية لم ينبغن، مستقلات بأنفسهن أو بمعزل عن رجل يعتمدن عليه : فدام كورى أشهر النابغات في ميدان العلم كانت زوجة رجل من كبار العلماء يشاركها أو تشاركه في بحوثها وآرائها . ومسربروننج ، الشاعرة الانجليزية نظمت أجمل قصائدها وهي زوجة للشاعر روبرت بروننج . . . وجورج اليوت كتبت أفضل رواياتها وهي في عشرة لويس صديقها المأثور لديها . . . واللادى ديلك Dilke كتبت في الدراسة العلمية حين كانت زوجة للعالم الأديب مارك باتيسون Pattison وكتبت في السياسة والأدارة حين أصبحت زوجة رجل من رجال السياسة والأدارة .

وأشار هافلوك اليس إلى تجارب الباحثين بأنحاء القارة الأوربية فيما بين الرجل والمرأة من الفوارق الذهنية والنفسية ، فكانت خلاصتها أن المرأة مطبوعة على الوصول إلى النتائج بالحيلة والتحسس وخفة التناول والتنفيذ ، وأن الرجل يقابل ذلك بالاتجاه الصريح والنفاد والتصميم .

ومن درس هذا الموضوع على الطريقة العلمية الأستاذ ارنتس كرتشمير Ernst Kretschmer ، فألمع في كتابه نفسيات العباقرة إلى النساء اللاتي اشتغلن بالفنون ولخص رسالة موبياس Mobius الذي

خص القول بالموسيقى لأن المرأة لم تعطل قط عن تعلم الموسيقى والعزف على آلاتها . . . قال : ومع هذا لم يبق من أسماء نابغات الموسيقى إلا الأسماء التي كانت تتصل ببعض الرجال كاسم كلارا شومان زوجة شومان الموسيقى العالمى المعروف ، وفانى مندلسن أخت مندلسن وكورونا شروتر صديقة جيتى ، وغيرهن على هذا المنوال .

وذكر الشاعرة الألمانية فون درست هلشوف .

Anette von droste Hulshoff

فقال إنها كانت أقرب إلى الرجولة في مزاجها وكلامها ، وكانت تترى بأزياء الرجال وتسمى في بعض شعرها لو كانت صياداً منطلقاً بالعراء أو جندياً مقاتلاً أو رجلاً على الأقل . . . ولم تنظم قط في عواطف الأمومة أو وصف الطفولة أو حنين المرأة إلى الحب والألفة وماشبه ذلك من معارض الشعر التي يكلف بها النساء ، وأضاف إلى ذلك أن هذا التروع إلى التشبه بالرجال والتزى بأزيائهم مشهود مطرد في نساء التاريخ المشهورات مثل الیصابات ملكة إنجلترا وكاترين قيصره الروس وكريستينا ملكة السويد . . . فهن ينبغن في اقتدارهن على بعض أعمال الرجال بمقدار ما ينقص فيهن من صفات الأنوثة ، لا بمقدار ما يزيد ويفضل عن الحاجة إليه .

* * *

وأسلم ما يقال في هذا الباب ولا يقبل الخلاف عليه أن فاصل الجنس موجود ، وأن هناك صفات ذكورة وصفات أنوثة لا التباس بينها

حين تنعزل وتتمادى إلى طرفيها ، ومن خير بنى الانسان أن يسان لهم هذا التنوع فى الصفات على اختلاف ألوانها وظلالها ودرجاتها وطبقاتها ، لأن التنوع زيادة فى ثروة الاحساس وزيادة فى ثروة الحياة وزيادة فى الأعمال التى تستطيع فى كل حالة من هذه الأحوال . وترتقى إلى غايتها من الاتقان كما يرتقى كل شئ إلى غايته بالتخصيص وتوزيع العمل فيه .

وأن الجنس لم يخلق ليزول ويشابه الجنسان .
ولكنه خلق لبقى ويتعاون جانباه على إتمام حياة الانسان .

* * *

الحُبُّ

نرانا مرة أخرى أمام تضليل اللغة لنا عن فهم الحقيقة أو أمام جنابة الأسماء على المدارك الانسانية .

فالأسماء قد حصرت المعاني فأدت لأنها جمعتها من القوضى والشتات . وحصرتها فأضرت ، لأن المعاني أوسع من أن تقبل الحصر ولكل منها حالات مثلها لا تنحصى .

ومن هذه الأسماء اسم « الحب » لذلك العالم الزاخر الذى لانهاية لمعانيه .

فهو اسم واحد ولكنه ليس بشيء واحد .

ويضل من أجل هذا عن حقيقته كل من ينتظر شيئاً واحداً حين ينظر إليه .

لأنه على أية حال ليس بشيء واحد موجز المعاني كلفظه الوجداني الذى يدل عليه .

* * *

فى كل حب بين رجل وامرأة شيء من حاسة الجمال ، وشيء من الأثرة وحب الاحتجان ، وشيء من الغريزة النوعية والخصائص الجنسية ، وشيء من الرغبة فى المتعة الحسية والنفسية ، وشيء من التجميل وزخرفة الخيال والتطلع إلى المثل الأعلى ، وشيء من الألفة التى

تحب إلينا كل مألوف أو توحشنا من بعده والمعيشة بدونه ، وشيء من
الخوف والقلق والرجاء والحيلة والمحاولة وكل ما يدور في سريرة الانسان
حول تلك العناصر التي تشتمل عليها تلك الكلمة الصغيرة ذات الحرفين
الاثنين .

وهذه الخصائص توجد في حب الرجل والمرأة وتوجد في غيره من
العلاقات .

فالانسان يألف المرأة التي أحبها ويألف الوطن الذي أطلال الإقامة
فيه .

ويلجأ إلى التجميل وزخرفة الخيال إذا فتن بالعظمة والنبوغ كما يلجأ
إلى التجميل وزخرفة الخيال إذا فتن بالمعشوقة الحسنة .

ويروقه الجوهر النفيس فيتمنى أن يملكه ويستأثر به دون غيره .
وكذلك يفعل حين يروقه جمال المرأة التي يهواها .

ويحس الغريزة النوعية حين يحب ولا يحب ، وتتيقظ فيه الخصائص
الجنسية وهو بعيد من المرأة أو قريب منها .

ويستمتع بحاسة الجمال وهو ينظر إلى الشفق وإلى الريحانة وإلى
الصورة وإلى التمثال .

فهى عناصر تتفرق في الدنيا وتتجمع في عاطفة الحب كما تتجمع
العناصر القليلة في صور لا تقبل الحصر ولا تحدها الأسماء .

ومن الأمثلة التي تقرب لنا هذه الحقيقة أن عناصر المادة تعد
بالعشرات ولكن الصور التي نراها في هذا العالم تبنى على الألوف وألوف
الألوف .

وإن حروف الهجاء لاتتم العشرات الثلاث ومنها الكلمات التى تضيق بها المجلدات فى جميع اللغات .

فلانهاية لألوان الحب التى تتجمع من تلك العناصر القليلة ، لأنها تتباين فى الترتيب وتتباين فى القوة وتتباين فى المقادير وتتباين أبعد التباين على حسب المحبين ، وعلى حسب الأعمار والأطوار النفسية فى الحب الواحد .

ولاوجه للمقابلة بينها كما لاوجه للمقابلة بين كلام وكلام لأنها مركبان من حروف متشابهة ، فحب هذا الانسان لايشبه حب ذاك الانسان ، ومايشاهد من محب فى عنفوان هواه لايلزم على وجه من الوجوه أن يشاهد من سائر المحبين .

إنما العنصر الذى لانتخلو منه عاطفة الحب بالغة مابلغت ألوانه ودواعيه هو تميز شخصية بين سائر أفراد الجنسین حيث لا يوجد رجل مميز بين الرجال وامرأة مميزة بين النساء فلاحب ولاعلاقة ولكنها شهوة كشهوة الطعام يشبعها كل غذاء ، ولذة كلذة الحس من متاع اللمس والسمع والرؤية ولوفى جهاد .

ولايزال الأمر فى حدود الاستحسان والروعة والرغبة فى الحب حتى تمتاز بين أفراد الجنس شخصية لاتغنى عنها شخصية أخرى وإن شاركتها فى يحمل صفاتها أوزادت عليها فى محاسنها . فإذا امتازت هذه « الشخصية » فذلك هو الحب وذلك هو الغرام . وفى اسمه بالعربية شرح لأطواره وشروطه وأولها الألفة واللجاجة والعكوف .

وقد يولد الحب من النظرة الأولى .

ولكنه ينمو بعد ذلك لاحالة حتى يستوفى نموه بعد التمييز والألفة
والافتنان في ضوء الحيال

وإنما يولد الحب من نظرة واحدة إذا استولى بتلك النظرة على حاسة
الجمال أو أثار الغريزة أو أذكى حمية الغيرة والشوق إلى الحياة
والاحتجان ، ولكنه لا يكون أقوى الحب حتماً لأنه ولد على عجل أو
جاش في النفس قويا من نظرة واحدة . فربما أبطأ الحب وسرى في
الضمير غير محسوس به ولا ملتفت إليه ، ثم يشعر به الحب يوماً فاذا هو
أقوى من كل حب تثيره المفاجأة وتعجل به النظرة الخاطفة .

ودأب الحب في ذلك كدأب الخوارج الانسانية في أطوار السرعة
والزوال ، وأطوار الاناة والبقاء .

وقد يلتقي الرجل بالمرأة فيعرض عنها وينفر منها ، ثم يلتقي بها في حالة
غير تلك الحالة فيألفها ويتعشقها ويصمد على هواها . لأن المعول في
هذه الحالات على الابتداء وتسلسل البواعث الأخرى . فاذا حسنت
البداءة تبعها البواعث التالية في نسق مقبول حتى تبلغ مداها .

ولو كان الحب شيئاً واحداً لما اختلف وقعه بين نظرة ونظرة وبين
مقابلة ومقابلة وبين الرجل في آونة من الزمن والرجل نفسه في غير تلك
الآونة .

هو في عناصره كألوان الطيف الشمسي لا تنطبق على عدده أصابع
اليدين ، ولا تكفي أرقام الحساب كلها لاحصاء ما يتألف منها ويتفرع عليها
من الظلال والشيآت والأصباغ .

ولهذا لانسأل عنه سؤالنا عن خصلة واحدة أو خصال . محدودة ،
كما لانسأل عن الألوان والأصباغ على هذا الأسلوب .

فن ضيق النظر إلى الحب أن يقول قائل إنه ينطفيء بالاتصال بين
الجسدين . أو إنه يستلزم الاتصال ولا يذكو بغيره .

ومن ضيق النظر أن يقال إن الحب يكون عذريا أو لا يكون ، أو
يستدل عليه بهذه الصلة ولا يستدل عليه بصلة سواها .

لأن الحب قد وجد بين الجنسين قبل أن توجد الأواصر الاجتماعية
التي تحرم الاتصال بين الرجل والمرأة بغير عقد مشروع .

فاذا سئل عن الحب العذري فليس السؤال هل يوجد أولا يوجد
وهل هو مشروط في طبيعة الحب أو غير مشروط فيها ؟ وإنما السؤال هل
الحبان قد غلبت عليهما نزعة الفطرة أو غلبت عليهما آداب الجماعة أو أوامر
الدين ؟ وقد يستتبع هذا السؤال سؤالا تالياً وهو : هل جمحت الغريزة
بصاحبها أو لا تزال في قبضة العنان التي يقدر عليها الأقوياء أو يقدر عليها
بعض الضعفاء إذا هان أمر الجماع ؟

وعلى هذا يوجد الحب العذري ولا يوجد ، ويعهد في بيئة
ولا يعهد في بيئة غيرها ، ولا يعدو أن يكونا لوناً من ألوان الحب
يستطاع في علاقات وتنوء به الطاقة في غيرها من العلاقات .

وكذلك السؤال عن الحب هل هو سعادة أو هو شقاء ؟ فقصارى
لقول فيه أنه هو حب سواء قلت حب شقي أو حب سعيد . فاذا اتفقت
جوانبه الكثيرة فهو أقرب إلى السعادة إن كان لا يستغنى عن قلق يغلي

ويعيد الأمن به والسكون إليه بعد المخالفة عليه . وإذا افترقت جوانبه
الكثيرة فهو أقرب إلى الشقاء وإن كان هذا الشقاء لا يخلو من دواعي
الأغراء والاعزاز لأنه هو التكليف التي تقوم بها قيم الشعور .
ولكنه - لكثرة عناصره - أقرب إلى الشقاء منه إلى السعادة ، لأنه
عرضة لافتراق الهوى في النفس الواحد حين تتناقض الرغبة والكرامة أو
تتناقض أسباب الألفة وأسباب النفور ، وعرضة لافتراق الهوى بين
نفسين اثنتين لا تزول الحواجز بينها كل الزوال وإن أفرطاً في المودة
والوفاء ، وعرضة لافتراق الهوى بين تينك النفسين وبين البيئة التي يعيشان
فيها ، وعرضة لافتراق الهوى من تقادم العهد وتبدل الاحساس وتجدد
العلاقات التي يتعرض لها كل هؤلاء .

وإنما كان له هذا الشأن الأكبر بين العواطف الانسانية لأنه هو
العاطفة التي تنفذ إلى جميع العواطف والتجربة التي تمتحن بها النفس في
جميع طواياها ، والشعور الذي تتأهب له بنيتان وطويتان بكل ما أودع
فيهما من نوازع الجنس العريقة في أعماق جذور الحياة من الخلية الأولى
إلى فطرة الانسان .

ولا يقال إن امرءاً عرف نفسه وسر أغوار ضميره مالم يسيرها في هذه
العاطفة مرات ، لأنها لا تتغلغل إلى أنحاء الضمير جميعاً من نوبة واحدة
ولا تزال لكل نوبة رسالتها التي تحملها إلى قرار في أغوار الضمير لم يكن
بالمعروف ولا بالميسور . وقد تطلع المرء على أخس ما فيه كما تطلعه على أنبل
ما فيه .

فهى بوتقة لانظير لها ، وهى بوتقة تدخلها معادن لا تحصى ، وقد

بدخلها المعدن ذهباً تارة وقصديراً تارة أخرى . على حسب الشخصيتين
وعلى حسب التوازن التي تثار في العلاقة بين تينك الشخصيتين .
ولا يلزم أن تكون الضعة في إحدى الشخصيتين ضعة في العاطفة
وتعبراتها ، لأن هذه الضعة قد تحمي في النفس مناعتها وتستجيش محاسن
العطف والرحمة فيها ، كما تحمي الجرثومة مناعة البنية التي تداخلها وتستنفذ
حراسها وحماها .

وعلى هذا النحو لا يلزم أن تكون الرفعة في إحدى الشخصيتين
رفعة في العاطفة نفسها ، فمن الرفعة ماتلقاه النفس بالاعجاب ولاتلقاه
بالفطرة الثائرة التي ترجعها وتزلزلها وتستخلص منها ذخيرتها ويكوامن
قواها .

إنما هو تفاعل بين شخصين . وكثيراً ما يتفق في العواطف البشرية كما
يتفق في الكيمياء أن يكون للمادة الحسيسة فعل
تفاعل بين شخصين . وكثيراً ما يتفق في العواطف البشرية كما يتفق في
الكيمياء أن يكون للمادة الحسيسة فعل مفيد وأثر نفيس في المادة التي
تفاعلها ، ولا بد من التفاعل بين النقااض والمتشابهات في بوتقة النفس
وفي بوتقة الكيمياء .

معاملة المرأة

إذا كانت هذه هي المرأة في جملة صفاتها ومزاياها ونقائصها وحقوقها فكيف نعاملها؟ أو كيف نهتدى بمجمل هذه الآراء والمشاهدات في معاملتها؟

ولا ينصرف هذا السؤال إلى معاملة المرأة في الأندية ومجالس البيوت والمحافل العامة ، لأن هذه المعاملة تجري على سنة المجاملة التي تفرضها آداب كل أمة ، وتجرى على سنة المراسم التي يراها من يدين بها ويتقيد بعرفها ونكرها .

وهو أيضاً لا ينصرف إلى معاملة المرأة في القوانين والدساتير لأن جميع القوانين والدساتير سواء ما لم تدرأ المرأة عن حوزتها الأولى وفريضتها العليا ، وهي الاشراف على مملكة البيت وعلى تنشئة الجيل المقبل وصيانة الأسرة .

إنما ينصرف السؤال إلى « المرأة الطبيعية » لاسيدة النادي ولاعضو المجتمع ولاصاحبة الحقوق في القانون والدستور .

وأوجز ما يقال في جواب السؤال على هذا المعنى أن الرجل الذي يحسن معاملة « المرأة الطبيعية » هو الرجل الذي يشغل إحساسها ، وأن الذي يشغل إحساسها ولو بالسخط والغضب والاثارة أقرب إليها من يتركها فائرة النفس لا تغضب ولا ترضى ولا تميل ولا تنفر ولا تشكر ولا تنطوى على حقد أو مودة .

وقد شوه نساء كن يُحسِن من السعيدات المنعمات لأن أزواجهن كانوا يغدقون عليهن النعمة ويتأدبون غاية الأدب في خطابهن ولا يزالون معهن على ديدن الكياسة في الخلوة والاجتماع كأنهم يعيشون معهن الدهر على ملأ من نبل القرون الوسطى ! فلم تنقض عليهن مدة حتى طلبن الطلاق وألحقن في طلبه ، وذهبن إلى أزواج يمزجون الرضا بالغضب واللين بالخشونة ، فأخلدن إلى العيش معهم وآثرنه على تلك الجماملات التي لانقطاع لها في خطوة ولا اجتماع .

وشوه نساء يشكين بين الجسد والمزاج أن أزواجهن يسرعون إلى استجابة كل إشارة هن وإنجاز كل رغبة من رغباتهن ، وسمعت من هؤلاء النساء من تقول : بودى لو يخالفنى يوماً فيأبى أن يذهب إلى دور الصور المتحركة حين اقترح عليه الذهاب إليها . وبودى حين يقبل الذهاب أن يخالفنى ولو في اختيار الدار التي أدعوه إليها .

وفي هذه الأمنية من جد أكثر مما فيها من مزاح .

لأن المرأة تستريح إلى الشعور « بالحاجة » وتنوط بهذا الشعور طمأنينتها وتسند إليه ضعفها ، وهي لا يخلص لها الشعور بالحاجة إذا انطلقت بغير وازع يمنعه بعض المنع ويردها إلى الطاعة من حين إلى حين . وقد تخالف الرجل فتسعد بالتجاح في المخالفة . ولكنها تشيع هذا التجاح بالندم وتود لو حبطت مخالفتها وتعوضت منها الشعور بالقوة التي تردّها إلى طاعتها . وشغل الإحساس ضرورة للمرأة لا يحبس لها عنها أو ضريبة مفروضة عليها لانجاة لها منها . وكفى من بواعثها إلى شغل إحساسها أنها تمتحن في كل دورة قرية بثورة لاتكبحها أو بهمود لا ينقذها منه إلا ثورة تلعبها

وتحرك رواكدها ، وإنه مع هذا لسبب عارض يزداد على السبب الدائم الذى جعل حياتها منوطة بالمؤثرات الحاضرة غير حافلة بما يعقبها .

ومن المتواتر فى أقوال بعض الرجال من عشاء النساء الطبيعيات أن المرأة تحب الرجل الذى يضربها ويهينها ، وتؤثره على الرجل الذى يكرمها ولا يزال يرضأها .

وقد يكون فى هذا القول تقديم وتأخير : تقديم للضرب والاهانة على الحب ، وأخرى أن يتقدم الحب على الضرب والاهانة . فإن المرأة تقبلها ممن تحبه لتزداد شعوراً بحبه وغلو قيمته لديها ، وقد يسرها أن تعلم كيف أصبحت أثيرة عند الرجل حتى أثارته غيره عليها أو اهتماماً بشأنها . لأن قلة الاكثرات هى أخوف ما تخافه من الرجل الذى يعينها .

ولكن التقديم والتأخير فى ذلك القول لا يجردانه من الصدق الذى تعرف له علة معقولة . فان المرأة يلذ لها الخضوع إذا وجدت من يخضعها لأنه يحقق لها أنوثتها بين يدى الفحولة الغالبة عليها ، وإنها ليلذ لها الألم أحياناً لأن الألم مقترن بأحب الوظائف إلى طبيعتها وهى طبيعة الأمومة . ومتى لذ لها الخضوع والألم فلا عجب أن يلذ لها الضرب والهوان ممن يعينها .

ويشبه هذا القول أن المرأة تعرض عمن يقبل عليها وتقبل على من يعرض عنها ، لأن المرأة تهتم نفسها إذا أعرض عنها الرجل فلا يهدأ بالها حتى تدفع عنها التهمة وتسرد إليها الثقة بفتنتها وغوايتها . وقد تشعر أنها بلغت من الرجل كل ماتوده إذا هى لمحت منه الاعجاب بها ، فلا حاجة

بها إلى المبالاة به لأنها عرفت قيمتها لدية . إلا أن يكون الرجل قد أعجبها
فهي تتخذ من إعجابه بها وسيلة إلى استبقائه في أثرها .

وذلك الذى يصدق على المرأة في هذه الحالة يصدق على كل ضعيف
يلتمس قيمته في نظرات الناس إليه . فانه ليقنع ويتعالى إذا لمح المبالاة
به وإنه ليخنع ويتردد إذا لمح الاعراض عنه . ومهما تكن المرأة
جميلة فاتنة فهي تهتم بجمالها وفتنتها إذا عجزت عن غزو رجل من الرجال
بها ، ويقع في خاطرها على الأثر أنه يهملها لأنه يعرف من النساء من
هى أجمل وأفتن . فيكون رضاه أحب إليها من رضا المعجبين بها
والخائمين حولها .

ومن المحقق أن المرأة لاتنصن براحة ولاسمعة ولاكرامة في سبيل الرجل
الذى تتبعل له تبعل الأنثى لفحلها . وقد تأنف من معاشرة الضرة مع
رجل لا يملكها بفحولة طبعه ومثانة أمره ، ولكنها تقبل معاشرة الضرات
طبعة . راضية إذا صادفها الرجل الذى يملكها بفحولة طاغية على
مشيتها ، وتسرها يومئذ ساعة الخطوة لديه بين ضراتها كأنها نعمة متزعة
من السماء ، تظل تحلم بها وكأنها لاتصل إليها إلا أن يسعدها الحظ عند
مالكها ومولاها .

وقد تقول « سيدة النادى » غير ذلك بلسانها ، ولكنها لاتقول غير
ذلك لابلسانها ولايقبلها إذا حلت فيها « المرأة الطبيعية » محل السيدة
الاجتماعية . وإنما تحل فيها هذه « المرأة الطبيعية » محل سيدة النادى بين
يدى « الرجل الطبيعى » الذى ينفذها من شعائر العرف المصطنع إلى
ماوراءها .

والمرأة بعد لانتطلع من الرجل إلى شعور أحب إليها من شعور الحماية
المحيطة بها والقوة الغالبة عليها . ولهذا يرضيها أن يمتزج بمعاملتها شيء من
معاملة الطفلة المدللة ولو من ابنها وأخيها . فأحب الرجال إلى المرأة هو
الرجل الذي تسكن إليه طفلة مطمئنة تقبل حنانها وتخاف غضبه وتتوخي
رضاه ولا تأنف من تأنيبه وتعذيبه .

تلك هي حواء ، في قرارة الوقائع والآراء . لا تتبدل حتى تتبدل
الأرض والسماء .

من كتب المؤلف

للمؤلف في كتبه ومقالاته آراء عن المرأة والجنس بعضها موحز عارض وبعضها مطول موقوف على هذا الموضوع . وفيما يلي نبذة منها تمت إلى فصول هذا الكتاب وتُعد في مكانها إلى جانب بحوثه وتعليقاته . وقد تفيد في تقريب جوانبها كما تمثلت للمؤلف في أزمنة مختلفة وتوخى في اقتباسها الإيجاز دون الإسهاب

• • • • •

النساء أسرع تقليداً لأنهن أشد غيرة . وهن أشد غيرة لأن للمشكلة بينهن في المتأخر والمفخر أقرب مما هي بين الرجال
« خلاصة اليومية - ١٩١٢ »

• • • • •

لا ينبغي أن يقتصر الغرض من تربية البنت على تعليمها كيف تكون زوجة إلا إذا كنا نعلم الفتى في المدارس ليكون زوجاً . والواجب أن نغني أولاً بتعليمها ما تشأ به امرأة قادرة على النهوض بنصف أعباء الهيئة الاجتماعية . فإن العشرة الزوجية ليست حرفة يتلقى الطالب أسرارها في دور التعلم ، ولكنها عمل كسائر أعمال الحياة يحسنه الإنسان أو لا يحسنه بمقدار ماله من الحذق والاختبار
« خلاصة »

• •

المرأة ألطف زكّانة وأفطن إلى تشابه الملامح من الرجل . فقد رأيت بعض النساء يرين الطفل الصغير قبل أن تشخص ملامحه فيحكمّن بأنه من آل فلان وأن فيه شبه العائلة الفلانية ، وقد لا يبدو بينهما أدنى شبه . والظاهر أن كثرة اشتغالهن بتجميل الملامح قد أكسبن هذه الخبرة فيها

« خلاصة »

* * *

إنما رأيها في الرجل هو رأى الرجل في نفسه . ولهذا كان أكثر الرجال توفيقاً عند النساء أشدهم اغتراراً وزهواً . حتى لقد وجدت المرأة ترى الجمال فيمن يراه لنفسه ، وإن كان الجمال من الأشياء المحسة بالبصرة

« الانسان الثاني - ١٩١٢ »

في المرأة من أخلاق الطفل غيرته المضحكة ونزقه السريع واستغراقه في الحاضر الذى بين يديه ، وقصور نظره على الظواهر والقشور ، ومرحه وغرارته ونفوره مما يهيم ويصلح ، ومحاكاته كل ما يراه ، وتعويله في أموره على سواه ، وتقلبه وكذبه ورياءه وأثرته وولعه باستطلاع المضمرات والأسرار ، وجشعه وطمعه وموجدته واقتنانه

بالثناء والاطراء

« الانسان الثاني - ١٩١٢ »

* * *

شغلها اليوم كشلغلها قبل التاريخ . فإ تزال صارخة كل عناية إلى تزيين ظاهرها وتحسين هندامها ووسائل إعجاب الرجل بها ، ولا يزال لها ولع الهمجى بجزره وريشه الطويل وشغفه بالألوان المبهجة الزاهية

والصور البراقة الخالبة . . وما أفادها تقدم العمران وتدرج العصور إلا
أنها جعلت الطلاء مكان الوشم ، والجواهر في موضع السيج ، وثقوب
الاقراط بعد ثقوب البُرى أو عطور الرياحين والأزهار بدلا من دخان
النّد والعود . مع شيء يسير من التّهذيب كان لا مندوحة لها عن اقتباسه
من الرجل في عشرة الدار التي تجمع بينهما على تباين الافكار وتباعد
الأوطار

« الانسان الثاني - ١٩١٢ »

* * *

ليس إلا غرور كغرور . . بنت حواء يزين لها أن تقول للرجل : أنا
ربة الجبال وصاحبة القوة فوق الجبال . أسعى سعيك وأدأب دأبك . . .
وليس هذا كل ما عندى . بل إنك لتعمل ولا عائق لك بشيك عما أنت
أأخذ فيه . أما أنا فأعمل كما تعمل في حين أنفض بأعباء الحمل والوضع
والحضانة والتربية . فأغالب عاملى التعب والألم وأنت تنوء بواحد منها .
ولا أراى قانعة بأن أكون مثلك . فانى لأصلب منك عوداً وأشدّ جلداً ،
وأجمل منظراً وأحدّ ذكاء . . .

« الانسان الثاني - ١٩١٢ »

* * *

هذا المجتمع معركة ضروس . والنساء فيه آسيات جروحه وضامدات
كلومه وجابرات كسوره . فكيف به وقد طرح آسياته المراهم واللفائف .
وتبدلن منها الخناجر والقذائف ، ثم برزن للنضال بين المتناضلين . . .
أعوذ بالله ! ! إن المجتمع ليكونن ساعتئذ كأنه قطع من الذئاب قد

أضره الجوع والسعار . فانبعث عاويًا عاديًا يتخطف كل من مسه
الكلال فوق من بينه معنى في بعض الطريق

« الإنسان الثاني - ١٩١٢ »

• • •

لو قام الرجل فادعى أنه يستطيع أن يزاحم المرأة في الولادة والرضاع
لقام في وجهه مكذب من تركيب الجسم ونظام أجهزته وأعضائه . أما
صفات الرجولة التي قدمناها فليس لها جهاز خاص ظاهر للنظر أو لعلم
التشريح . فلهذا ظنت المرأة أن ادعاءها الحزم وسعة العقل وقوة الطبع
أيسر عليها من ادعاء الرجل الاستعداد للحمل والرضاع . مع أن الأمرين
بمترلة واحدة من الصعوبة والاستحالة . وكل ما بينهما من الاختلاف أن
مزية المرأة في التركيب الجسمي ظاهرة للحس وأن مزية الرجل لم
تظهر في شكل خصوصية جسمانية . على أن هذا لا ينفي أن آثار هذه
الخصوصية تظهر في أعمال الرجل ومراميه وإن تظهر أعيانها في أعضائه
وجوارحه

« مجمع الأحياء - ١٩١٦ »

• • •

أيها المرأة ! كأنك قلت منذ هنية متباهية : أنا أجمل من
الرجل . . . نعم أنت أجمل من الرجل في عين الرجل . أما في عين
أختك فأقبح رجل أجمل منك وأحب إليها . ولو كنت تمثال الزهرة
حسنًا وحوراء الجنة شبابًا . فلا تظني أنك كنت تتحلين بهذه الحلية لو لم
يرها الرجل لك . أليس جمالك الأنثوي هو الثوب الذي أعجب الرجل

أن يراه على جسدك قد ألبسك إياه فلبسته ؟ وهل أنت التى تحبين هذا
الجمال لنفسك أو هو الذى يحبه لنفسه ؟ وهل كنت ترين سمته على
وجهك ورواءه على أغصانك أو هو كان يراه فيختار منه ما يحلوه فيبقى
عليك ويزهد فيها لا يلائمه فيزول منك ؟

أيتها المرأة لاتتقى بثوب العرس تقولين للرجل إن ثوبى أفخر من
ثوبك . فانه هو الذى أهدها إليك ولو لم يعجبه لما أعجبك

« مجموعة الأحياء - ١٩١٦ »

الحق أن المرأة ليست بأسلم جانباً من الرجل كما تقول ، لأنها أميل
منه إلى الشحنة والشجار . فربما اتفق مائة رجل على الخطب المتفاقم
الجسم ولم تتفق امرأتان على الهنة الواهنة الطفيفة . وقد أغناها عن أن
تكون مجرمة بنفسها أنها تجرم بيد غيرها ، لأن أكثر الجرائم إنما يقع بسببها
ولأجلها . فهي تدرك ما تشاء من الجريمة دون أن تحتمل تبعها .

« مجمع الأحياء - ١٩١٦ »

* * *

إن المرأة ما برحت أبعد عن أوضاع المدينة وفروضها من الرجل . . .
إن المرأة كما يعلم الخبيرون تؤتمن على كبتها وقد لا تؤتمن على بناتها . لأنها
لا تبالي من أى الرجال تلد بناتها ، ولكنها تبالي كل المبالاة أن تلد كبتها
من غير ولدها . وذلك لأن الطبيعة لا تندبها لغير إنتاج الذرية سواء كان
إنتاجها على حكم العرف أو على ضد حكمه

« مجمع الأحياء - ١٩١٦ »

... ما يدريك ما عصر الاسترخاء والترف ؟ . إنه عصر تزيف فيه
الابصار والبصائر فتكلّ عما وراء القشور والظواهر . عصر تكون البهائم فيه
أصدق حبا من الناس لأن البهائم لا تلعب بحبها ولا تبتذل غرائزها .
تهجع المشاعر في أمثال ذلك العصر فتعربد الحواس ، ويموت الحب
الفطري فتمرح في رفاته ديدان الشهوات ، ويأخذ الناس من كل شيء
بأسره ، ويقنعون من كل مطلب بأقربه إلى الحس وأصغره ، فلا يكون
الجمال إلا صبغة في البشر تلحسها الألسنة حتى تزول ، ثم تمجها كما يمج
البصاق الملوث من فرط التقزز والاحتقار . . .

« الفصول - ١٩٢٢ »

* * *

... أين هو الرجل الذى يفهم الحرية وهو يسكن إلى شريحة في
الحياة مستعبدة ؟ وأين الرجل الذى ينعم بشمرة الحرية وهو وليد أم
مقيدة ؟ وأين هو الرجل الذى تحيا نفسه وقد مات فيها الجانب الذى
خلقت المرأة لتحييه

إنه العنقاء التى يتحدثون عنها في أساطير الأولين

« الفصول - ١٩٢٢ »

... في السويد كاتبة كبيرة تدعى « النكى » تقترح أن يفرض
التجنيد على الفتيات كما يفرض على الفتيان ، فتقضى كل فتاة تبلغ الثامنة
عشرة مدة سنتين في الخدمة العمومية . وفهم تقضى هذه المدة لا في حمل
السلاح طبعاً ولا في التدريب على إطلاق المدافع وحفر الخنادق ولا في
شن الغارات وتدوين المستعمرات ، وإنما تقضيها في التدريب على

وظائف الأمومة بين مدارس الأطفال وملاجئ المرضى ومستشفيات
الولادة ومعاهد الفنون الجميلة وما هو من هذا القبيل

« الفصول - ١٩٢٢ »

* * *

لكل عضو جماله الخاص به ، وجمال العيون والشفاه عام لا يحمل
الجمال إلا به . ولو نظرنا إلى مزية في العيون والشفاه تجعل لها هذا
الشأن في تقدير الجمال غير اتصالها بالاحساس ذلك الاتصال الذى ألمعنا
إليه لما أبصرنا لها مزية سواها . فلماذا لا نقول إن الأصل في حب الجمال
هو امتحان قابليات الجسم بأظهر أجزائه للناظر ؟ .

« الفصول - ١٩٢٢ »

أن الفرق بين الناس في الأهواء الجنسية لم ينجم عن فرق في
الانخداع للوهم والتمرد على القيود . ولكنه نجم عن فرق في مناعة النفس
ووثاقة الخلق وفي الصلاح للأبوة وبقاء الذرية ، بحيث يمكن أن يقال -
بل يقال على التحقيق - إن الفضائل الجنسية الصحيحة كانت في أول
نشأتها مزايا جسدية فزيولوجية قبل أن تكون مزايا أدبية أو دينية

« الفصل - ١٩٢٢ »

ليس أدل على اضمحلال أمة أو على قرب اضمحلالها من سهولة
الشروط الفطرية التى تبنى عليها العلاقات بين الجنسين وشيوعها في جميع
الناس على السواء . فالرجل الذى لا يتخير لعاطفته الجنسية يقول بأصدق
لسان ينطق به - لأنه لسان ذرة من ذرات جسمه - إنه أب حقير لا خير
للعالم في نسله ولا موجب للتمييز والتدقيق في ذريته

« الفصول - ١٩٢٢ »

جمال المرأة حلة من نسج الطبيعة . ولكنه - بعد - حلة كسائر الحلل
 يلبسها أهلها كما يلبسها غير أهلها . فكم من مليحة تحس وأنت تنظر إليها
 أنك في حل من محو ملامحها ، وانك إن نزعته لم تكد تنزع عنها شيئاً من
 لحمها ودمها . . فهي طلاء أو هي برقع أو هي تزويق ، ولا يمنعك إلا
 الحياء أن تصيح بها : اذهبي فغيري هذه الملابس التي عليك . . . أما إذا
 اتسق الجسم واعتدل هندامه ونضجت حلاوته واستوت أجزاؤه وانسكب
 عليها رواؤه فأى اختيار يبقى للجمال ؟ إنه لا مفر له من النزول هناك . إنه من
 نسج الجسم وله نصيب في كل موضع منه ؛ وليس هو بالخلعة التي تستره
 ويحاذ بها عليه . إنه حلة لا تنفصل عن لابسها لأنها لونه الذي تنضج به
 طبيعته ونوره الذي تشعه حياته ، كاحمرار الوردة واخضرار الشجرة ونضرة
 الفاكهة ووهج الجمرة المتقدة لا افتراق بينها ، ولا عذر لمن يجن بغير هذا
 الجمال .

«مطالعات في الكتب والحياة - ١٩٢٤»

* * *

إن الزينة عناية بالظواهر ، والتمنع هو إخفاء ما في باطن النفس . . .
 وكلاهما لازم للمرأة أو الطبيعة ، وكلاهما يستدعي الرياء والمحاولة ،
 ولاسيما إن كان في خلق ضعيف لا يقدر على اظهار كل ما يخالجه ولا
 بأس أن يوبخ بكل سره . . . ولو أننا خيرنا بين امرأة صريحة أن تهجر
 الزينة وتطيع أول رغبة وبين امرأة مرائية أى تتحلّى وتستعصم لما طال بنا
 الرّدّد والاختيار ، ولعلمنا حينئذ أن الفلسفة الطبيعية أصدق وأحكم من
 فلسفة علم الأخلاق .

«مطالعات - ١٩٣٤»

من أسوأ العلامات في الزمن الأخيرة أن يصغر قدر الرجولة في نظر المرأة حتى تأنف من الاقرار للرجل بحق الانفراد دونها بشأن من شئون الحياة ، وحتى تدعى أنها تستطيع به أن تكون امرأة ورجلا في آن واحد وهو لا يستطيع أن يكون رجلا مستقلا بعمل من الأعمال

«مطالعات - ١٩٢٤»

إن آداب الأندية يوشك أن تبغى على آداب الكتابة ومباحث الفكر . فيحبس الكاتب قلمه عن كل ما يفضب المرأة ولا يوافق هواها كما يحبس لسانه عن ذلك في أندية الأنس ومجالس السمر ، ويكتب حين يبحث في مسائل الاجتماع بقلم السمر الطريف لا بقلم الناقد الأمين . ولكن الأندية شيء وأمانة الكتابة شيء آخر . لا بل يجب أن نذكر اصل آداب الأندية فلا ننسى أن الرجل إنما يخص المرأة بالزيادة في الحفاوة والملاطفة ويحرص على مجاملتها وتقديمها لسبب واحد . وذلك أن الرجل لا يكلف المرأة ما يتكلفه هو ، وإنه يعفيها مما يطالب به أنداده وأكفاه في القوة والواجب . ولم ذاك . ؟ لا لأنها سواء ولا لأنها متكافآن ولكن لأنها غير سواء في الواجبات والتكاليف وغير سواء في القوى الجسدية والنفسية .

«مطالعات - ١٩٢٤»

• • •

لوحظ أن المرأة تعنى بسلامة الأعضاء - كل عضو على حدة - أكثر من عنايتها بجمال الأعضاء وحسن تناسبها في مجموع شكلها فإذا نظرت إلى

الرجل تفرست في كل جارحة من جوارحه وتأملت في تركيبها تأمل
الطبيب الذى يفحص أجزاء الجسم لا تأمل الناقد الفنى الذى يلتفت إلى
عموم الشكل ثم إلى نسبة كل جزء منه إلى جملة أجزائه . ومعنى ذلك أن
الترعة النفعية أغلب على مزاجها من الترعة الجمالية الفنية . وإنما ننظر إلى
جسم الانسان نظرها إلى جهاز ركب لأغراض مفيدة لا إلى دمية معبودة
أو تمثال وسم من صنعة الفن الجميل

«مطالعات - ١٩٢٤»

* * * *

حرية اختيار الزوج حق المرأة إن شاءت تولته بنفسها وإن شاءت
تركته لأوليائها . على أنى لا أعالى بهذا الحق مغالة الذين يحسبونه أس
السعادة كلها فى الزواج
... . إننى أحب أن تحتفظ المرأة الشرقية « بأنوثتها » وألا تقتبس من
المدنية الغربية إلا ماكان سلاحا لهذه الأنوثة فى أداء وظيفتها وصون
حقوقها
«مراجعات فى الأدب والفنون - ١٩٢٥»

* * *

رأيت منذ أيام صورة الأم والابن للمصور الانجليزى دافيس - وهى
صورة فرس مرضع ترأم مهرها الصغير - فما تمثلت حين رأيته إلا
الأمومة وحنانها وتضحيتها بغض النظر عن الأم هل هى امرأة أو فرس أو
عن الولد هل هو طفل أو مهر . ولو وضع المصور فى مواضع الفرس
والمهر أما آدمية وطفلهما لما اختلف شعورى بها فى جوهره . لأننى إنما

رأيت الحنان المائل في الصورة وتجاوزت الشكل الظاهر إلى ما وراءه ، أو
لعل صورة الفرس والمهر أبلغ في تمثيل الحنان لأننا نستغرب أن نحل هذه
العاطفة في قلب حيوان أحرص فيكون عطفنا عيه ألد وأعظم وتأملنا في
عجائب تلك العاطفة داعياً إلى الامعان في الشعور بها والتعمق في
استحضارها

«مراجعات في الأدب والفنون - ١٩٢٥»

* * *

المرأة ما خلقت فيما مضى ولن تخلق بعد اليوم قانوناً خلقياً أو نحوه
أدبية تدين بها وتصير عليها غير ذلك القانون الذي تتلقاه من الرجل
وتلك النخوة التي تسرى إليها من عقيدته . ولو ظهرت في الأرض نبيه
بمعزل من دعوة الرجال لما آمنت بها امرأة واحدة . ولا وجدت لها في
طبيعة الأنثى صدى يلبيها إذا دعت إلى التصديق والایمان . وإنما المرأة
تؤمن بالرجل حين تؤمن بالنبي وباللله

«ساعات بين الكتب - ١٩٢٧»

تلك هي «أما» كما يدعوها المقربون أو «لادی هاملتون» كما عرفها
المجتمع ، أو هي المرأة الالهية . . . كما كان ينعتها رومني المصور المفتون
تعود صاحب لي كلما رأى صورها التي عندي أن يقول : طوبى
لنسون ! إني أريد أن أحسده فلا أدري أعلى هذه الحبيبة أحسده أم على
تلك العظمة التي أصبح بها في الخالدين ؟ إن الرجل لسعيد ! ولكني
لا أعلم أسعيد هو بالنصر في عالم الحرب أم سعيد بالنصر في عالم الغرام ،
ولو أننا سألنا نلسون لأجاب وأغنانا عن التخمين فما كانت العظمة لنلسون

ولا لغيره إلا تكاليف وفروصاً يشقى بها المكلفون . وما كان المجد إلا صخباً
لجوجاً لا نوم فيه ولا سكون . وإن لم يخل من أمانيه وأحلامه . . . فان
كانت سعادة في المجد فهي سعادة قلب لا سعادة رءوس وأكالييل ، ولن
يسعد قلب بغير عطف ، ولن يكمل عطف بغير حب جميل
« ساعات بين الكتب - ١٩٢٧ »

* * *

إن الغيرة ثمرة الحب والأثرة والخوف . وهذه العناصر الثلاثة تثمر في
طبائع النساء ما ليست تثمره طبائع الرجال . فهؤلاء وهؤلاء يغارون ولكن
أحرى الفريقين بالزيادة من هو أحرى بالاشفاق وأخسر صفقة في الضياع
« ساعات بين الكتب - ١٩٢٧ »

* * *

ما من رجل كبير أو صغر إلا والمرأة واجدة بديلاً منه يغنيها عنه في
جميع نواحيه أو بعض نواحيه : إن كان محبوباً ففي الرجال من هو
أحب . وإن كان مهيباً ففي الرجال من هو أهيب ، وإن كان جميلاً أو
سرياً أو قوياً ففي الرجال من هو أجمل وأسى وأقوى . ولقد تستبدل
الذى هو أدنى بالذى هو خير . فليس من الضروري أن تفاضل المرأة بين
الحسن والأحسن والصالح والأصلح . . . وليس من الضروري إن هي
فاضلت - ان تكون مختارة مفتوحة العينين فيما تدع وفيما تأخذ . فقد
تكون مخدوعة مسوقة ثم تستنم إلى الخديعة ، وقد تؤثر الرجل على الرجل
شهوة طريق . كما يذهب الانسان إلى غداثه فيلقاه مطعم يفعم أنفه ببعض
روائح فيميل إليه ، وقد يعافه في غير تلك الساعة
« سارة - ١٩٣٨ »

«نزلت سارة وهى مستريحة مستبشرة خفيفة القلب والطوية لا يبدو عليها أثر من التكلف والرياء . ومن دأب المرأة إذا انتعشت حواسها أن تحف وتنشط ولا يثقل على ضميرها عبء من الأعباء ، وهذا الذى يلوح للرجل فى صورة البراءة فينخدع ، أو هذا الذى يسمونه أحياناً بعمق المرأة وقدرتها على إجادة الرياء وإخفاء مافى الطوية ، وإنما هى فى خفتها كالطفل الذى تأخذه حماسة اللعب فلا تحضره الشواغل ولا تثقله الدخائل . . . »

«سارة - ١٩٣٨»

° * °

إن الرجل يعشق الأنثى فى مبدأ الأمر لأنها امرأة بعينها : امرأة بصفاتها الشخصية وخلالها التى تتميز بها بين سائر النساء ، ولكنه إذا أوغل فى عشقها وانغمس فيه أحبها لأنها « المرأة » كلها أو المرأة التى تتمثل فيها الأنوثة بجذائرها وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها ، فهى تثير فيه كل ماثيره الأنوثة من شعور الحياة . وأى شعور هو بعيد من نفس الانسان فى هذه الحالة ؟ إن الأنوثة لتثير فيه شعور القوة والجمال ، وشعور الانسان كله ، وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من آراء مرهوبة ومن أغوار لايسبر مداها فى النور والظلام . . لأن المرأة حين تمثل الأنوثة هى مناط الخلق والتكوين ، وأداة التوليد والدوام والخلود ، وهى مظهر القوة التى بيدها كل شىء فى الوجود وكل شىء فى الانسان

«ساره - ١٩٣٨»

إن الرجل حين يحب المرأة فانما يريد ما هو أجمل
منها ، وإنما يحسها ويحس بها لأنها هي لأنها امرأة لا فارق بينها وبين
سائر النساء

وكالمنظرة التي تجلو العين لأنها نظارتها تكون المعشوقة للعاشق الذي
عاشرها وألف محاسنها وعيوبها ، وتمثل كل صفة من صفاتها كأنها
شخص مستقل « مخصوص » لا مشابهة بينه وبين الصفات عامة . فلا
النظرة التي هي أبعد أمداً وأنفس زجاجاً تغنى العين التي تنظر بما دونها ،
ولا المرأة التي هي أجمل طلعة وأكرم سليقة تغنى القلب عن المرأة التي
تعود أن يخفق لها أو يخفق معها .

«سارة - ١٩٣٨»

* . * . *

أوجه ما نقول في تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن
النبي عليه السلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها أو مباحاً يختاره من يختاره
وله مندوحة عنه ، وإنما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها
الأمة في بعض الأحوال لأنها خير من ضرورات . ولن ينكر هذا إلا
متعنت ينكر الحقائق ويتجاهل المحسوس الماثل للعيان

. . . ولاشك أن الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها
أكرم لها وللمجتمع من نيلها في معتك هذه الدنيا الضروس بغير ولد
وبغير زوج وبغير عاصم ، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو كائن حتى يريد أن
يصل ما بينه وبين الحياة بذرية صالحة هي الغرض الأكبر من كل زواج ،
ولولاها لاتنقض في المجتمع الانساني أساس كل زواج

ولاشك بأن الجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة أخرى أكرم وأصلح من الجمع بينها وبين خليله أو عدة خيلات

ولاشك أن تسهيل الزواج وبخاصة في أوقات الحروب التي ينقص فيها الرجال أكرم للمجتمع الانساني وأصلح في تسهيل العلاقات الأخرى التي لا تنفع الأخلاق ، ولا ترفع المرأة في عصمة رجل أو في متناول كثير من الرجال

«عبقريه محمد - ١٩٤٢»

* * *

إنما العقوبة التي آثرها النبي ﷺ هي الهجر الطويل أو القصير ، بعد العظة والعتاب الجميل

والهجر - ولاسيا الهجر في المضاجع - عبقريه نفيسة بالغة وليست كما يتبادر إلى بعضهم عبقريه حسية تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة . فان فوات السرور والمتعة أليماً لا يؤلم المرأة هذا الإيلام الذي يجعل الهجر في المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق . . . فأبلغ العقوبات ولا ريب هي العقوبة التي تمس الإنسان في غروره وتشككه في صميم كيانه : في المزية التي يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل ولكنها لا تأسى لذلك اما علمت انها فاتنة له وانها غالبية بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق إليها ورغبة فيها .

فليكن له ما يشاء من قوة ، فلها هي ما تشاء من سحر وفتنة وعزائها الأكبر عن ضعفها أن فتنها لا تقاوم ، وحسبها أنها « لا تقاوم » بديلاً من القوة والضلاعة في الأجساد والعقول .

فإذا قاربت الرجل مضاجعة له وهى فى أشد حالاتها إغراء بالفتنة ثم لم يبالها ولم يؤخذ بسحرها فما الذى يقع فى وقرها وهى تهجس بما تهجس به فى صدرها ؟

أفوات سرور ؟ أحنين إلى السؤال والمعاتبه ؟ كلا . بل يقع فى وقرها أن تشك فى صميم أنوثتها وأن ترى الرجل فى أقدر حالاته جديراً بهيبتها وإذعانها ، وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة . فهو مالك أمره إلى جانبها وهى إلى جانبه لا تملك شيئاً إلا أن تثوب إلى التسليم .

«عبقريه محمد - ١٩٤٢»

° ° °

الفارق فيما نرى - بين النى والفاروق - هو الفارق بين انسان عظيم ورجل عظيم .

فالنى لا يكون رجلاً عظيماً وكفى . بل لابد ان يكون إنساناً عظيماً فيه كل خصائص الانسانية الشاملة التى نعم الرجولة والأنوثة والأقوياء والضعفاء وتبوءه للفهم عن كل جانب من جوانب بنى آدم ، فيكون عارفاً بها وإن لم يكن متصفاً بها ، قادراً على علاجها وإن لم يكن معرضاً لدوائها . شاملاً لها بعطفه وإن كان ينكرها بفكره وروحه ، لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، وأخبر بسعة آفاق الدنيا التى تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء ، لأنه يملك مثلها أفاقاً كآفاقها . هى آفاق الروح .

ومن الصفات الآدمية التى كثيراً ما يطبقها الانسان العظيم ويبرم بها

الرجل العظيم كل غرور صبياني يحبك بنفوس الناس . . . وهو ضروب ليست لها نهاية : غرور الشاعر بأماذيجه ، وغرور الفنان بصنعتة ، وغرور المرأة بجمالها ، وغرور الشيخ بثرائه ، وغرور الأحمق بخيالاته ، وغرور الجاهل بعلمه . . . وفي كل ضرب من هذه الضروب كان بين محمد زعيم فارق واضح وتفاوت محسوس ، وكانت بينهما دروس تجرى بها الحوادث تعلما وهدي كما تجرى عرضاً غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين .

«عبقريّة محمد - ١٩٤٢»

* * *

لا الرجل « زير النساء » ولا الرجل « العاشق » بالحجة في ذوق الجمال . لأن زير النساء موكل بحب الأنوثة في المرأة ينظر إليها قبل أن ينظر إلى جمالها ، ولأن العاشق موكل بحب « شخصية » معينة تسبويه كائنًا ما كان حظها من الجمال ، ولهذا يحب المرأة ويؤثرها على سائر بنات جنسها ، وأمام عينيه منهن من هو أجمل منها وأوفر حظا من المحاسن والمغريات .

مثل الرجل « زير النساء » في هذا مثل الرجل الأكل يهتم كل ما صادفه من المأكول ، فليس هو بالحجة في التمييز بين الأطعمة والطعوم .

ومثل الرجل العاشق في هذا مثل الرجل المولع بصنف واحد من المأكول فهو مصدوف عن كل ما عداه ولو كان فيه ما هو أفضل في التغذية وأمتع في اللذة .

فلا هذا ولا ذاك يسأل في صناعة الطهى ومنتعة الطعام وإنما يسأل
عنها الرجل الصحيح الذى يملك ذوقه فلا يصرفه صارف عن تمييز
الحسن السائغ حيث كان .

«شاعر الغزل - ١٩٤٣»

* * *

فى حياة السيدة عائشة ميزان صادق لحقوق المرأة فى عصرها ، وقد
يقاس عليه الميزان الصادق لحقوق المرأة فى جميع العصور .

فالحياة البيئية وما يتصل بها من حياة التربية والتعليم ومعونة الرجل فى
واجباته العامة هى خير ما تتولاه المرأة من الأعمال .

والسياسة - ولاسيما السياسة فى عصور الاضطراب - هى المجال
الذى يحسن بها اجتنابه ولا يرجى لها التوفيق فيه ، وقد تودى فيه هنالك
الحير إذا التزمت جانب المسألة وكانت لها وسيلة إليها . أما جانب الرئاسة
والاشراف فلا طاقة لها به ولا يتأتى لها أن تتولاه إلا نقلت إليه شؤون البيت
ومزجته بما يهملها من أواصر القرابة والمعيشة الزوجية .

فالسيدة عائشة كانت ربة بيتها وشريكة زوجها ، وكان زوجها
العظم يعينها فى شؤونه ويكون فى مهنة البيت مادام فيه

وكانت هى تعينه على شؤون الهداية والاصلاح كلما وسعها المعونة
فيها ، وقد لقنت الناس ما تلقته منه فأحسنن التلقين

وهذا فى جملته هو قوام الحقوق بين الجنسين

ولكنها على ذكائها وعلمها ، وعلى أنها فى بيت الرئاسة نشأت ، وفى

بيت الرئاسة عاشت ، وأنها تعودت أن يؤبه لها وتسمع كلمتها • - قد تحولت بها طوارئ العصر إلى السياسة العامة فكانت فيها طوعا لأوامر البيت ودواعى المودة والنفور التي توحىها ولم تكن مثلا يقتدى به في توجيه الأمور العامة كما كانت مثلا للنساء كافة

وهى ربه بيتها وشريكة زوجها الصديقة بنت الصديق - ١٩٤٢

* * *

تعطيل الإرادة أصيل فى الهوى كله . ولاسيا الهوى الذى نسميه بالعشق أو نسميه بالغرام

لأن المرء يرتبط فيه بارادة شخص آخر فهو مقيد بهذا الارتباط الذى لا تتفق فيه الارادتان فى جميع الأحيان .

ثم يتقيد الشخصان معاً بارادة النوع كله أو بالارادة القاهرة التى تتمثل فى الغريزة النوعية وتتغلب كثيرا على إرادة العاشقين ، وإن اتفقا على حالة من الحالات

ثم يتقيدان بالعرف الذى يفرضه المجتمع وتفرضه الآداب والأخلاق فوق ما تفرضه الطبيعة من طريق الغريزة النوعية

ثم يتقيدان بظروف المعيشة وأحوال الدنيا التى تتاح على وفاق الهوى أولا تتاح

فاذا تميز العشق بين سائر العلاقات الإنسانية بخاصة من الخواص الظاهرة فأكبر ما يتميز به هذا التقيد الشديد لارادة العاشق من جملة نواحيه

وقد يبلغ به هذا التقييد لإرادته أن يحول بينه وبين فهم إرادته فلا يعلم ماذا يريد فضلاً عن أن يعلمه ويعجز عنه ، فإذا به قد انقسم على نفسه كما ينقسم المعسكر الواحد إلى ضدين متحاربين ، ولا غنيمة لأحد منها في الانتصار ، إذ هو انتصار لا يخلو في الحالتين من خسارة وينتهي به الأمر إلى البقاء على حالة عجزاً عن تغييره لا سروراً به ولا رغبة فيه

فهو لا يتعلق بمعشوقة لأنه راض عن هذه العلاقة يلتذها ويتشهاها ويتذوق النعمة والمهانة فيها ، ولكنه يتعلق به لأنه عاجز عن فراقه ، مقيد بضروب من العادات والوساوس لا حيلة له فيها ولا قوة له عليها ومثله في ذلك مثل المدمن الذي يتعاطى السموم ولا يجهل بلواها ، ولكنه يقلع عنها فلا يقرّ له قرار ، فيمضي فيها وهو كاره لها يبحث ما استطاع عن سبيل النجاة

«جميل بشينة - ١٩٤٤»

* * *

العشق أصيل في طبيعة الإنسان إذا نحن رددناه إلى الغريزة النوعية ، بل هو أصيل في طبائع بعض الأحياء من الطير والوحش كما ظهر من تلازم بعض الأزواج واقتصار بعض الذكور على بعض الإناث ، بغير تبديل إلى أمد طويل

«جميل بشينة - ١٩٤٤»

فهرس

صفحة	
٣	هذه الشجرة
١٠	غواية المرأة
١٩	جمال المرأة
٤١	تفاوت الجنسين
٥٥	تناقض المرأة
٦٤	حب المرأة
٧٤	أخلاق المرأة
٨٩	حقوق المرأة.
١٠١	الجنس
١١٣	الحب
١٢٠	معاملة المرأة.
١٢٥	من كتب المؤلف

مطبعة: نفوسه مصر